# ما وراء البوسفور (1914 ـ 1918)

**إن حالمي النهار رجال خطرون، إنهم يستطيعون رؤية حلمهم بأعين مفتوحة كي يجعلوه ممكنا.**

ت. أو. لورانس، أعمدة الحكمة السبعة

مثلما بنيت روما على تلال سبعة، طالبت اسطنبول بسيطرة أبدية على العالم، وأثار بهاؤها وثراؤها توقعات مجنحة. من جانبهم، رأى الألمان في المدينة الواقعة بين أوروبا وآسيا البوابة التي يمكنها أن تفتح لهم الطرق إلى مصر والهند.

أبلغ وزير الحرب التركي الحكومة الألمانية يوم الثاني من آب عام 1914 في رسالة سرية أنه يتطلع إلى دخول الامبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، فأثار عرضه الساسة الألمان، وجعل ديبلوماسيين وعسكريين يحلمون بالمشروع الطموح، ويرون سانحة تلوح ما وراء البوسفور لاقتلاع الامبراطورية البريطانية العالمية من جذورها، وتحويل ألمانيا إلى قوة عالمية. وقد دفعهم الطموح والنزوع إلى المغامرة إلى الرغبة في تخطي المضائق البحرية، والسير على الدروب التي كان قد طرقها الأسكندر الأكبر.

## جهاد ماكس فون أوبنهايم

كان الشخص، الذي أرسل أوسكار نيدرماير في خريف عام 1914 إلى

«الحرب المقدسة» رجلا له عينان متقدتان ولحية سوداء، سافر بجواز مزور إلى لقاء سري مع ساسة شرقيين، وكان في الرابعة والخمسين وعلى درجة رفيعة من التكوين العلمي والثقافي، ويريد دفع العالم الإسلامي إلى الجهاد. انتسب ابن الأسرة المصرفية الغنية من كولونيا إلى النخبة الاقتصادية والاجتماعية القيادية في الرايش الألماني، ووضع خطة هدفها زعزعة وتدمير الامبراطورية البريطانية العالمية، اسمه ماكس فرايهر فون أوبنهايم[1].

انقلب المزاج المعادي لبريطانيا إلى أفكار انتقامية متوحشة إبان أزمة تموز. عندما أبلغ السفير الألماني في بطرسبرج أن القيصر سيدعم الصرب وسيواصل التعبئة العامة، كتب القيصر فيلهلم الثاني ملاحظة ترى في سلوكه نتيجة لـ«سياسة التطويق» البريطانية. وصدر أمر قيصري يلزم قناصل ألمانيا في الشرق بدفع العالم الإسلامي إلى «انتفاضة حاسمة» ضد البريطانيين، «شعب البقالين المكروه، العديم الضمير والكذاب». كان القيصر يريد دور الضحية الذي يريد إلحاق أعظم قدر من الأذى بجلاده قبل أن يلقى حتفه على يديه: «إذا كنا سننزف، فلا أقل من أن تخسر إنجلترا الهند»[2].

ترجم ماكس فون أوبنهايم أفكار القيصر الانتقامية إلى استراتيجية واسعة الأبعاد، تصورها في صورة حرب تحرر الشعوب الإسلامية من السيطرة الكولونيالية الغربية. لم تكن هذه الفكرة جديدة بحد ذاتها، لأن النضال من خلال التمرد الوطني الثوري كان منذ بداية القرن التاسع عشر إحدى أكثر أدوات سياسة القوة الأوروبية استعمالا. وعلى سبيل المثال، موَّل عملاء

1. جابريله تايشمان / جيزيلا فولكر (الناشرة): سحر الشرق: ماكس فون اوبنهايم ـ الباحث ـ الجامع ـ الديبلوماسي. كولونيا 2001.

2. حول استراتيجية ألمانيا لهز استقرار الامبراطورية البريطانية، تابع سلسلة الوثائق «مشاريع ومؤامرات ضد أعدائنا» في الارشيف السياسي للخارجية الألمانية، برلين. وكذلك: إيجمونت تسيشلين: تطلعات سلمية ومحاولات تثويرية، في: من سياسة العصر. ملحق مجلة «البرلمان» الأسبوعية (17 أيار 1961).

بريطانيون الحركة القومية الألمانية في فايمار عصر جوته واستخدموها لخدمة مصالح بلادهم. وكان بسمارك مستعدا عام 1866 لتعبئة «فيلق هنجاري» ضد فيينا، وعرّض نفسه، لهذا السبب، إلى نقد الملكيين البروسيين العنيف. كما أرسل عام 1870/ 1871 عملاء، بينهم صديق أوبنهايم الحميم الرحالة الباحث جيرهارد روهلفس[3]، إلى تونس، لتحريض العرب ضد فرنسا. لكن هذه كانت مع ذلك عمليات متفرقة، تجاوزها ماكس فون أوبنهايم، الذي أراد تحريض دين عالمي كامل ضد الامبراطورية البريطانية، مع أن من وضع بين يدي القيصر «مذكرة حول تثوير المناطق الإسلامية الخاضعة لأعدائنا»، لم يكن ثوريا بالولادة، بل كان الحفيد الموهوب للمصرفي سيمون أوبنهايم، الذي كان القيصر فرانز ـ جوزيف النمساوي قد منحه النبالة عام 1867، واعتبر ممثلا معتدا بنفسه لنخبة ألمانيا الاقتصادية والفكرية القيادية، مثلما اعتبرت السلالة المصرفية، اليهودية المعتقد بالأصل، التي تحدر منها، ممثلة برجوازية غرب ألمانيا الكبيرة الحديثة وما بلغته من نفوذ بفضل التجارة والثروة. كان نبلاء فون أوبنهايم في سلوكهم، ومظهرهم، وصورتهم عن العالم، أكثر قربا إلى كبار الصناعيين الأميركيين الناجحين منهم إلى إقطاعيي شرق نهر الإلبه.

ولد مؤسس البيت المصرفي، سالومون أوبنهايم، عام 1722 في جيتو (معزل) مدينة بون الصغيرة، مقر الامير. وصار في 1822، أي بعد خمسين عاما، أول مواطن يهودي ينتسب إلى غرفة التجارة في كولونيا. كانت تقاليد تسامح الدولة البروسية مثلما كان انفتاح نمط الحياة الراينية يتفقان ومصالح وقيم الأسرة، التي ارتبط تطور كولونيا كمركز صناعي ومالي باسمها حتى اليوم، وامتلكت منذ سبعة أجيال أقدم وأكبر مصرف خاص في ألمانيا.

رغم ميولها الوطنية ومذهبها الكاثوليكي وقربها من القيصر، وجدت

3. أشكر نائب القنصل المتقاعد هانس كوتينج من باد هونيف على المساعدة الودية.

الأسرة نفسها عرضة لأحكام مسبقة اجتماعية، عندما اراد ماكس فون أوبنهايم الالتحاق بالخدمة الديبلوماسية، فاعترض أعضاء بارزون في وزارة الخارجية على أصله اليهودي، وأجبروه على الدخول في السلك القنصلي الأقل شأنا، وعينوه في موقع تنقصه هوية قانونية محددة ألحقه بين عامي 1896 و 1909 بالقنصلية القيصرية العامة في مصر، وأعفاه من العمل القنصلي الروتيني. وجد أوبنهايم في القاهرة الوقت الكافي لتعلم اللغات وإجراء أحاديث مع الخديوي ومخالطة الشيوخ والاعيان. وكان يرسل، كأي ديبلوماسي، تقارير إلى برلين توزع على ممثليات ألمانيا الخارجية في أثينا وبلجراد وبوخارست واسطنبول وبطرسبرج وكالكوتا، وطور نفسه فلم يعد عالم آثار وبحاثة رحال وعميل سياسي للرايش الألماني وحسب، بل غدا واحدا من أعظم خبراء الشرق في عصره، بل ان اهتماماته السياسية والعملية تجاوزت الشرق، فدرس خلال رحلتين إلى الولايات المتحدة الأميركية إعمار أميركا الشمالية اقتصاديا بواسطة شركات السكك الحديدية الخاصة، وخرج بانطباع إيجابي عن التخطيط الأميركي لتنمية المناطق الكبيرة وعن سياسات المشاريع الخاصة الموجهة نحو تحقيق أهداف معينة. وقد جمع تجاربه في بحث أرسله إلى قادة السياسة والاقتصاد في ألمانيا عنوانه: «تطوير منطقة سكة حديد بغداد وخاصة سوريا وبلاد ما بين النهرين في ضوء التطبيق المفيد للتجارب الأميركية». هذه الدراسة تعتبر إلى يومنا هذا وثيقة تعطي انطباعا مقنعا عن عقل مؤلفها التحليلي ومؤهلاته السياسية / الاستراتيجية.

لم يكن ماكس فون أوبنهايم معجبا بالديناميكية الأميركية يرفض اتخاذ موقف نقدي منها. وقد اعترف أن اقتصاد ومجتمع الولايات المتحدة حققا إنجازا عظيما بفضل إعمارهما السريع للغرب، وقال إن باستطاعة السياسة الأوروبية التعلم من تجاربهما. وأدرك في الوقت نفسه أية قوة اقتصادية تنمو على الجانب الآخر من الاطلسي، وفهم أن أميركا تتحول إلى تحد كوني بالنسبة إلى ألمانيا وأوروبا، وأكد: «إن الولايات المتحدة تبرز أكثر فأكثر

كخطر اقتصادي على أوروبا، بعد أن صار ميزانها التجاري مرعبا بالنسبة لنا، ونمت زراعتها وقطاعات انتاجها الأخرى نموا عاصفا من عام لآخر»[4]. لم تكن سياسة أميركا الاقتصادية والاجتماعية الليبرالية في نظر أوبنهايم سوى استراتيجية قوة حسبت بدقة: «إن نشاط الحكومة الأميركية لدعم مبادرة المواطنين الخاصة يتطور دوما بطريقة هادفة وواعية». ولا يعمل الاقتصاد الخاص والسياسة بعضهما ضد بعض، بل يعملان يدا بيد وقد وحدتهما المصلحة الوطنية. أما الجهاز الديبلوماسي لأميركا فيحرص على مدهما بمعرفة جيدة حول تطور أوروبا الاقتصادي، ويدرس بعناية تقارير المحاصيل، قبل أن يضعها موظفون قنصليون تحت تصرف الاقتصاد الأميركي: «وقد تمكنت بعض التروستات الأميركية من إدخال مصالح أوروبية كبيرة في دائرة عملها أو من إخضاعها».

رأى أوبنهايم أن الرايش الألماني لم يعد يستطيع مواجهة قوة الولايات المتحدة الأميركية السريعة النمو بمفرده، وأن كل شيء يتعلق من الآن فصاعدا بتنظيم أوروبا كمجال سياسي واقتصادي كبير، وبتعريف مصالحه والدفاع عنها في مواجهة أميركا: «وهناك أسباب اخرى لتعاظم حاجة أوروبا إلى الاستقلال الاقتصادي عن أميركا»، هي في رأي أوبنهايم مصلحة أوروبا في تطوير الشرق الأدنى والأوسط كمجالين يتكاملان مع أوروبا: «يبدو لي أن منطقة بغداد تقدر أن تكون من بعض الجوانب قوة مضادة عند الضرورة لأية متطلبات مبالغ بها لدى صناع المال الأميركيين، وتستطيع أخذ موقعها كبلد مصنع للمنتجات الخام».

ذلك كان عالم الرجل الفكري، الذي أنجز الكثير والمهم كعالم آثار وباحث في حياة البدو وجامع لقى، وأراد إطلاق الثورة الإسلامية، «الحرب المقدسة» لخدمة ألمانيا. ولم يكن يريد في خريف عام 1914 توجيه ضربة

4. ماكس فون أوبنهايم: حول تطور منطقة سكة حديد بغداد، ص 347.

عسكرية سريعة مدمرة ضد قوات العدو المسلحة، بل كان يعمل على وضع استراتيجية سياسية تجور حول إثارة اضطراب داخلي في الامبراطورية البريطانية وتنظيم انتفاضة كبيرة يقوم بها العالم الاسلامي. وقد قدم «مذكرته» الإطار المفاهيمي لاستراتيجية ألمانية تتجاوز خطط الأركان العامة العسكرية، ولها تأثير سياسي يشمل العالم[5].

كانت الأهداف الجيواستراتيجية الأهم واضحة في نظر ماكس فون أوبنهايم: إنها مواقع الامبراطورية البريطانية المفتاحية وراء البحار. «إن العمل في مصر والهند هو التدبير الأكثر أهمية، وربما كانت أهميته حاسمة». وقد اعتقد أن شبه القارة الهندية غير مستعدة بعد للثورة ضد الامبراطورية، رغم أن كتلة الشعب الهندي ترفض السيطرة البريطانية الأجنبية. وعزا ذلك إلى كون معظم ساسة المعارضة الهندية لا يرغبون في حدوث انقلاب ويفضلون عليه التغيرات التدريجية، وحقيقة أن الإدارة الكولونيالية عرفت بطريقة بارعة كيف تستخدم بذكاء الطوائف والشعوب بعضها ضد بعض، وكيف تعزز بواسطة دعاية موجهة بمهارة الانطباع بأن سلطتها راسخة لا تهتز.

لم يسمح ماكس فون أوبنهايم لأي شيء بإحباطه. وقد كتب قائلا: «أسست دون ضجيج لجنة من هنود يعيشون هنا وفي الهند» تضم طلابا وخريجي دراسات عليا على استعداد لممارسة العنف الإرهابي. لقد تخصص هؤلاء في العلوم الطبيعية ليتمكنوا من القيام باعتداءات واغتيالات. وكان كثيرون منهم كيميائيون اختاروا هذه الوظيفة من أجل أهداف انقلابية. وكان فخورا بوجود شبان في شبكته لديهم استعداد للقيام بأعمال انتحارية: «لقد نذر هؤلاء أنفسهم للموت، وأقسموا أن يقتلوا الخونة. وتم في الشهرين الأخيرين تسريبهم تباعا إلى داخل الهند».

5. ماكس فون اوبنهايم: تثوير مناطق أعدائنا الإسلامية، 1914، تركة ماكس فون أوبنهايم، رقم 42.

ولكن، كان من الضروري تحقيق شرط أولي آخر بالإضافة إلى إرسال العملاء والإرهابيين، قبل أن تنشب الانتفاضة الكبرى ضد البريطانيين، هو تغلغل وحدات أفغانية إلى هضبة نهر الهند، لأن تغلغلها يجعل بالإمكان توقع هبة هندية عامة وناجحة. كان ماكس فون أوبنهايم متأكدا من قدرته على دفع أمير وشعب أفغانستان المحارب إلى التعاون مع الرايش الألماني، ورأى في الهجوم الأفغاني على الهند واحدة من أهم لحظات الصراع الألماني / البريطاني العالمي.

لا عجب أن البريطانيين لم يكترثوا لأهمية ماكس فون أوبنهايم العلمية، وأن تنقيباته وكتاباته لم تكن في نظرهم غير تضليل، وأنهم راقبوا بانزعاج أنشطة الديبلوماسي والباحث في شؤون البدو، الذي كان بالنسبة إليهم مجرد عنكبوت محاط بالاسرار في شبكة المؤامرات الألمانية المريبة وغير الشفافة. كتب المستشرق روبين بيدويل عام 1974 إلى كريستوفر سايكس، العضو السابق في مخابرات القوات الجوية، والرحالة المعروف في المشرق والكاتب والمؤرخ المتميز، يقول: «أثق أنك على حق حين تقول إن ماكس فون أوبنهايم هو الشخص الأهم على الجانب الألماني». كان سليل الأسرة المصرفية بميوله الأكاديمية وارتباطاته السياسية مشبوها إلى أبعد حد في نظر خبراء الشرق البريطانيين: «إنه غامض جدا ونادرا ما تحصل على أكثر من فقرة عن عمله الآثاري في أي كتاب مرجعي». وقد قارنه روبن بيدويل مع عالم الآثار هوجارث، قائد العملاء البريطانيين «العقل الاستخباري المفكر»، الذي كان لورانس العرب من تلامذته: «أعتقد أنه كان هوجارث الألماني ـ وأنه جمع العلم والعمل الاستخباري السري»[6].

كان ماكس فون أوبنهايم يعرف بدقة من يحتاج إلى الدعاية والمال والحلفاء من أجل إطلاق الثورة الإسلامية. وقد وجدهم في اسطنبول،

6. أوراق كريستوفر سايكس، مكتبة جورج تاون، واشنطن د.ث.

عاصمة الامبراطورية العثمانية، التي كان يحكمها منذ عام 1908 ثوريون جاهزون لاستخدام العنف تجمعوا في «لجنة الاتحاد والترقي» وسموا أنفسهم «الأتراك الفتيان». وكان ضباط منهم قد راقبوا ثورة عام 1905 الروسية بدقة من مقرهم الإقليمي المقدوني في سالونيك، وتابعوا بقلق عظيم التفاهم الروسي / البريطاني حول فارس عام 1907، ثم تقسيمها الفعلي إلى مناطق نفوذ لهما. وطرحوا السؤال التالي على أنفسهم: ما الذي يضمن أن لا يقسم الامبرياليون الروس والبريطانيون الامبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ، ويحولوها حتى إلى محميات؟. بعد تكريس الملك الإنجليزي والقيصر الروسي تفاهم بلديهما عام 1908 بصورة علنية، قام «الأتراك الفتيان» بانتفاضة واستولوا على السلطة في القسطنطينية.

خابت التوقعات الكبرى حول الدخول إلى الحداثة، والتقدم والرفاه، ووقعت السلطة في الأمبراطورية خلال السنوات العشر الأولى بين أيدي ضباط شبان، وثوريين طموحين وساسة جامحين، استخدموا ببراعة سلطان وخليفة اسطنبول كقناع يحجب سيطرتهم، بينما كانت قيادة ثلاثية من الأتراك الفتيان تقرر مصائر الامبراطورية العثمانية، احتل موقعا مركزيا فيها أنور باشا، وهو ضابط شاب وحالم نزّاع إلى الأفعال ومغامر سياسي يكن عواطف جياشة تجاه الرايش الألماني، وجمال باشا الديناميكي والقاسي، وموظف البريد السابق طلعت باشا، الرجل العنيف الذي لا يلوي على شيء.

لم يكن الثوريون الاتراك الفتيان ظاهرة سياسية معزولة خلال العقد الذي سبق الحرب العالمية، فقد كانت تربطهم صلات جيدة مع ثوريين آخرين ومجموعات ناشطة دوليا. وكان من رجال الارتباط النافذين في اسطنبول شخص اسمه إسرائيل لازاريفيتش هيلبهاند، عرف في الحلقات الثورية باسم سري هو ألكساندر بارفوس، وكان صحفيا ماركسيا يهوديا من أصل روسي، لعب دورا قياديا في ثورة 1905 الروسية الفاشلة، وانتقل بعد إقامة قصيرة في ألمانيا إلى فيينا فاسطنبول، حيث صعد بسرعة وصار

مستشارا ماليا للأتراك الفتيان، وتاجر بالأخشاب والحبوب والاسلحة والذخائر، مثلما تاجر بالاخبار السياسية أيضا، بصفته رجل ارتباط سري تابع للأممية الثانية، لكنه صار منذ كانون الثاني عام 1915 واحدا من أهم عملاء الرايش الألماني، وضع اتصالاته مع الحركة الثورية الروسية المحيطة بلينين في خدمة برلين[7].

عندما عرض أنور باشا معاهدة تحالف سرية على ألمانيا في العاشر من آب عام 1914، بعد يوم واحد من نشوب الحرب، لم يعرف بقية أعضاء الوزارة العثمانية شيئا عنها، لأن الامبراطورية العثمانية كانت لا تزال خلال أشهر الحرب الاولى بلدا محايدا من الناحية الرسمية. بيد أن هذا الوضع تغير تدريجيا، بعد لجوء سفينتين حربيتين ألمانيتين هما «جوبن» و«بريسلاو» إلى بحر مرمرة، بسبب قيام البريطانيين بمطاردتهما. هاتان السفينتان سلمتهما ألمانيا إلى السلطان، فأطلق عليهما اسمان تركيان هما «ياووز سلطان سليم» و«ميديللي»، واستبدل طاقمهما الألماني قبعة البحارة القيصرية بالطربوش العثماني.

في الحادي عشر من آب، بعد يوم من رسو السفينتين الحربيتين الألمانيتين على البوسفور، أرسل فون فاجنهايم، السفير الألماني في القسطنطينية، تقريرا إلى برلين حول مقابلته مع نائب سوري في البرلمان التركي، اقترح بالتفاهم مع أنور باشا «دعم الحركة الثورية في شمال أفريقيا وربما في أفغانستان أيضا». هذه المبادرة كانت بالنسبة إلى ماكس فون أوبنهايم «هدية الحظ» المنتظرة، فكتب في «مذكرته»: «إن الشرط الرئيس لتثوير المناطق الإسلامية الخاضعة لأعدائنا هو تعاون الاتراك الفعال تحت راية الخليفة السلطان، على أن يتم ذلك بطريقة منظمة تعي أهدافها». ثم

7. تسبينيك وتيمان: الألمان والثورة في روسيا 1915 ـ 1918. وثائق من أرشيف وزارة الخارجية الألمانية، لندن 1958.

تابع قائلا: «من المستحيل أن يتطور التعاون التركي المأمول وأن يبلغ المستوى التنظيمي المطلوب دون تعاون هادف وواع من جانبنا. علينا إمداد تركيا بالبشر والأموال والعتاد، آخذين بعين الاعتبار أن تحقيق ما نريد يتطلب موارد هائلة، وأن أنصاف التدابير ستكون دون جدوى». تعلمنا الجمل الاخيرة من المذكرة، التي تقع في 138 صفحة، كيف كان البارون يريد استغلال عرض الثوريين الأتراك، ولماذا رفض «أنصاف التدابير»: «إن دخول الإسلام الحرب هو ضربة مخيفة بصورة خاصة بالنسبة إلى إنجلترا. فلنفعل كل شيء، ولنعمل متحدين وبجميع الوسائل من أجل أن تكون الضربة مميتة!».

## حرب الهواة

وضعت برلين في الثلاثين من آب عام 1914، بعد أقل من شهر على نشوب الحرب، قائمة بأسماء الاشخاص الذين تقررت مشاركتهم في بعثة ألمانية إلى أفغانستان. كان هؤلاء مجموعة عشوائية تضم ضباطا من البحرية التجارية وضباط احتياط يجهلون البلاد ولغاتها، عدا ملازم احتياط هو فيلهلم فاسموس، مترجم وزارة الخارجية والقنصل السابق في مرفأ بوشهر في جنوب فارس، الذي كانت لديه موهبة تتيح له حسن التصرف. كان على أعضاء البعثة الذهاب بقيادة تركية إلى كابول، لإعداد هجوم الأمير على الهند. عرف فاسموس بسرعة أن مثل هذه المجموعة لن تستطيع القيام بعمليات ناجحة، فأرسل في الرابع عشر من أيلول عام 1914 رسالة خطية إلى أوبنهايم تلفت نظره إلى ضرورة اشتراك الملازم الأول البافاري نيدرماير في المشروع، لأن خدماته قد تكون من النوع «الذي لا يقدر بثمن».

كان فاسموس قد تعرف على نيدرماير مطلع عام 1914 في بوشهر، حيث حل البحاثة الرحالة مع ديتز لبضعة أيام. بعد هذه المقابلة، كان نيدرماير في نظر فاسموس واحدا من قلة ألمانية قليلة تصلح لبعثة أفغانستان، خاصة وأن لديه صلات مع فرس نافذين كسب ودهم إلى درجة غير مألوفة.

ولفت فاسموس نظر أوبنهايم إلى قوة اجتماعية مهمة، وجدت صدى قويا في فارس بين الإنتلجنسيا المدينية، يحتمل أن يتم كسبها لصالح ألمانيا: «ثمة جماعة دينية يمكن أن توضع في خدمة قضيتنا هي البهائيون، الذين لهم أتباع بين الوزراء في طهران، وينتمي عدد كبير جدا من الفرس المحترمين إلى طائفتهم، الطامحة إلى إصلاح المحمدية». قال فاسموس: إن نيدرماير تحول إلى البهائية حين كان في فارس، وهو الرجل المناسب: «لأن لديه كبهائي أصدقاء في جميع المدن ـ حتى في الهند ـ، ويعرف أناسا ذوي نفوذ وثراء، فضلا عن أنه يتحدث الفارسية والروسية ويعرف تحديدا منطقة الحدود مع أفغانستان». أخيرا، نصح فاسموس: «إذا كان ثمة خطط حول مشاركة ألمانية فاعلة في هذا المشروع في فارس وتاليا في أفغانستان ضد الهند، فان مشاركة هذا الضابط ستكون ضرورية إلى أبعد حد...»[8].

التقط ماكس فون أوبنهايم إشارة فاسوس للتو وألح في برلين على «إلحاق بعض من يعرفون بلاد فارس معرفة عميقة بالبعثة، مثل المشرف السابق على قنصلية بوشهر والملازم الاول نيدرماير. تدخل السفير الألماني في القسطنطينية فون فانجنهايم بجوره مؤيدا إلحاق نيدرماير بالبعثة. وطرح يوم 14 أيلول عام 1914 في نهاية برقية بعث بها إلى وزارة الخارجية السؤال الملح التالي: «متى يأتي نيدرماير؟». من الواضح أن الرجل كان معروفا في أوساط الخبراء على البوسفور بفضل رحلته الفارسية. وعندما زار فيلهلم فاسموس في نهاية شهر أيلول من عام 1914 رئيس البعثة العسكرية في القسطنطينية المارشال ليمان فون ساندرز، أعطاه هذا برسم البعثة الألمانية ثلاث أوراق لعب إنجليزية من جنوب فارس تحمل اسم شخص كان فاسموس يعرفه حق المعرفة «نيدرماير».

كان نيدرماير مطلع أيلول عام 1914 مع فوجه على الجبهة الغربية قرب

8. رسالة فيلهلم فاسموس إلى أوبنهايم بتاريخ 4 أيلول 1914: في الارشيف الوطني، الجزء الثاني، القسم 137/ 142.

نانسي. وقد وصلته بعد قليل من طلب فاسموس برقية تسأله إن كان مستعدا للمشاركة في بعثة خاصة إلى بلد لم تذكر اسمه. وافق الملازم أول بعد مداولات مع رؤسائه، والتقى في مقر قيادة الأمير روبريشت الرئيس بممثل أوبنهايم، المترجم القيصري كارل إميل شابينجر فرايهر فون شوفينجن[9]، ثم سافر إلى ميونيخ.

أعلم نيدرماير في هذه الأثناء بالقسمات العامة لفكرة أوبنهايم وبنوايا أنور باشا. وقد كان يعرف أنهم يريدون دفع العالم الإسلامي إلى الانتفاض، ويعملون على زعزعة السيطرة البريطانية على الهند، كما كان متشائما حيال فرص نجاح المشروع، لأنه كان قد شاهد قبل أشهر قليلة فقط ما لبريطانيا من قوة وسلطان في الهند. لكن المشروع قدم له فرصة فريدة للعودة إلى الشرق، ولوضع خبرات رحلته الفارسية في خدمة مهمة استثنائية، وزاد من رغبته في المشاركة إيمانه أنه لا يجوز خوض الحرب في ميادين المعارك الفرنسية وحدها، بل يجب خوضها كذلك في مدن وأسواق فارس وجبال وصحارى أفغانستان، ويمكن حسمها من خلال الانقضاض على الهند.

وافق نيدرماير، لكنه طرح كذلك شروطا، منها إشراك الأستاذ إيريش تسوجماير في البعثة، وهو عالم حيوان بافاري نفذ بين 1912 و 1914 رحلة بحثية إلى بالوشستان. واشتراك مراسله العسكري هانس ياكوب كوصيف. وفي النهاية، وصل إلى ملك بافاريا ملف شخصي يتضمن الملخص التالي: «عبَّرت الخارجية الألمانية في برلين عن الرغبة في استخدام الملازم الاول أوسكار نيدرماير من فوج المدفعية الميدانية العاشر في بعثة خارجية لمصلحة الرايش»، ورجت «أن توافق جلالتكم الملكية بكل عطف على منح الملازم أول إجازة مفتوحة مع احتفاظه باستحقاقاته»، فمهر الملك لودفيج الثالث المذكرة بتوقيعه وخاتمه.

9. لم يقابل شوفينجن نيدرماير في تشرين الثاني بل في أيلول من عام 1914.

عندما وصل نيدرماير في نهاية أيلول إلى تركيا، بعد رحلة دامت أياما عديدة في القطار، كان الوضع مضطربا على البوسفور. صحيح أن تركيا كانت لا تزال بلدا محايدا، لكن الشائعات كانت تملأ أزقة وأسواق اسطنبول، وكان مزاج أعضاء البعثة الألمانية سيئا، لكثرة ما تشاجروا على الصلاحيات والمواقع القيادية، ولأنه كان عليهم كخبراء، مثلما كان على البعثة نفسها، العمل تحت قيادة تركية، مع الاعتراف بحقها في تشكيل لجنة قيادة تتولى مسؤولية شؤونها الداخلية. بيد ان هذه البنية التنظيمية أخفقت، بسبب تناقض القيادة الجماعية التي نصح بها ماكس فون أوبنهايم مع تفكير العسكريين الألمان. ربما كانت الإدارة الذاتية قادرة على تأدية وظائفها في الجامعات، وكانت اللجان تستطيع العمل في البرلمانات، لكن الإدارة الذاتية ليست ملائمة بالتأكيد لجهاز يقود مشاركين في بعثة ذاهبة إلى أفغانستان تم اختيارهم عشوائيا. ثم أن كل بنية سيطرة تتبخر في الشرق عدا الاستبدادية منها، التي تبين أن نيدرماير كان الرجل الملائم لها.

وصف نيدرماير في الثاني من تشرين الاول، بعد أيام قليلة من الوصول إلى اسطنبول، انطباعاته الأولى في تقرير أرسله إلى أوبنهايم، فإذا هي لا تبعث على السرور. إن تغيير تركيب اللجنة القيادية، وصلاحيات أخذ القرار الغامضة، كانت تسبب الكثير من الشجار. ولكن، وبعد أن عين السفير فانجنهايم نيدرماير عضوا في اللجنة القيادية، بدت هذه المسألة وكأنها «حلت إلى حد بعيد». فقد انتمى إلى اللجنة فضلا عنه وعن فاسموس شخص ثالث اسمه كونستن. فيما عدا ذلك، بقي الوضع غير مقبول، لأن المشاركين في البعثة تصرفوا بطريقة غير منظمة، فسكروا وتحدثوا عن مهمتهم بصراحة في الفنادق والمطاعم. وتبين أن معظم من تم تجنيدهم في آب وأيلول عام 1914 كانوا غير ملائمين ووجب إعادتهم في فترة لاحقة إلى ألمانيا.

كانت التجهيزات الضرورية والمال ينقصان البعثة أكثر من أي شيء آخر. لذلك حذر نيدرماير أوبنهايم في الثاني من تشرين الأول 1914 من أي

تسرع وأية توقعات مبالغ بها، لاعتقاده أن أهداف ومهام البعثة العملياتية ليست واضحة: «يبدو لي أننا نفتقر إلى هذا التحديد الضروري، إلى هذا المعنى وهذه التربية»، كما أن برلين واسطنبول كانتا تتهربان من تحمل المسؤولية عن هذا المشروع المفعم بالمخاطرة، حتى أن نيدرماير تحدث مع أوبنهايم عن هروب بيروقراطي من مسؤولية سياسية. «إن وزارة الخارجية لا تريد بدورها أخذ المسؤولية على عاتقها. أعتقد أن أنور باشا هو الوحيد الذي يصدر أوامر عسكرية محددة، كتلك التي تفتقر القضية برمتها إليها»، واقترح مناقشة تفاصيل البعثة مع الأركان العامة التركية: «يبدو لي أننا أهملنا كل الإهمال هذه المسألة التي لا تقل أهمية عن غيرها». أما الصورة التي رسمها للهلال الذهبي، فكشفت أمام عيني أوبنهايم ما في مشروعه الواسع الأبعاد من نقاط ضعف.

طلب نيدرماير في رسالة بعث بها إلى وزارة الخارجية يوم 18 كانون الأول 1914 إبداء التفهم حيال موقف اسطنبول الرسمي، الذي يختلف اختلافا بيّنا عن وعود أنور باشا المغرية وموافقاته غير الرسمية. وأشار إلى أن على الحكومة التركية الحذر الشديد في السياستين الداخلية والخارجية، بما أن الامبرطورية العثمانية تجد نفسها في ضائقة مالية، وترتبط بمانحي الأموال الاجانب، بينما الرأي العام فيها منقسم تجاه الحرب: «لا يستطيع المرء لوم الأتراك، إذا ما واصلوا تحفظهم وأجلوا بسبب وضعهم الداخلي الراهن اتخاذ قرار بالتدخل في الحرب، وترددوا إلى أن يتأكد لهم بصورة مسبقة أنهم سيحرزون نجاحا كبيرا حال انخراطهم فيها».

توقع نيدرماير كذلك أن تواجه البعثة مصاعب كبيرة حتى في حال انضمام تركيا إلى الحرب، ورأى أن استهتار وخفة المشاركين الألمان لفتا أنظار «جهاز الاستخبارات البريطاني الممتاز جدا» إلى المشروع، وأضاف إنه لا يشك مطلقا في أن الإنجليز سيفعلون كل ما من شأنه إبادة البعثة وهي في الطريق. وألد مع ذلك أنه لن يسمح للأمزجة السوداوية أن تحبطه: «لقد

حققت رحلاتي أقصى ما كنت أتمناه بفضل التفاؤل». وإنني لأتوقع أن يفتح دخول تركيا الحرب الطريق إلى الشرق، وأن يضع نهاية لشجارات الألمان الداخلية.

بعد أحد عشر يوما وقع ما انتظره نيدرماير: فقد فتحت السفينتان التركيتان بطاقميهما الألمانيين النار في ساعات صباح يوم 29 تشرين الأول 1914 المبكرة على مرفأي أوديسا وسيواستوبول الروسيين. وفي الثاني من تشرين الثاني أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية، فتبعتها فرنسا والامبراطورية البريطانية، فما كان من اسطنبول إلا أن دعت المسلمين إلى «الجهاد»، وصار يجب أن يظهر الآن ما إذا كان مخطط أوبنهايم الكبير سيقود إلى انتفاضة في الشرق.

بدأت «الحرب المقدسة»، التي خطط لها ماكس فون أوبنهايم، بأعطال جسيمة على الجانب الألماني. كان نيدرماير قد رجا البارون في الثاني من تشرين الأول عام 1914 إرسال ثلاث محطات تلغراف لاسلكية إلى اسطنبول، تخصص إحداها للعمل ضد مصر، وتوضع الثانية في خدمة البعثة إلى أفغانستان، على أن تكون الثالثة تحت تصرف الأمير بمجرد وصول البعثة إلى كابول. أبلغت برلين السفير فانجنهايم في السابع من تشرين الثاني 1914 أن ما طلبه نيدرماير صار في الطريق، وأنه أرسل بصفته تجهيزات سيرك متجول. لكن صواري المحطات اللاسلكية كانت مغلفة بطريقة سيئة أثارت انتباه الموظفين الرومانيين الشكاكين، الذين قرروا فحص الحقيبة المرسلة إلى اسطنبول، ووجدوا إلى جانب الصواري مدافع رشاشة وذخيرة، فصادروا الشحنة، ووجب على برلين إرسال تجهيزات جديدة.

تبع هذا فشل آخر. كانت حقول نفط ومصافي عبدان، الواقعة عند مصب نهر قارون في الخليج، ضمن منطقة النفوذ البريطاني من بلاد فارس وعلى مقربة من الحدود. وقد رست بمحض المصادفة عند نشوب الحرب

سفينة بخارية ألمانية إسمها إكباتانا يصحبها زورق مدافع تركي قرب حقول النفط، التي كان نيدرماير قد مر قربها مطلع عام 1914، ورأى أن هناك فرصة للاستيلاء على عبدان ولتدمير المصافي وأنابيب النفط البريطانية بمعونة السكان المحليين. كانت الخطة تبدأ بإغراق إكباتانا إلى الجنوب من عبدان، لمنع السفن البريطانية وقوات النجدة من الوصول إلى المدينة، على أن يلي ذلك الهجوم وتدمير المصافي.

أقر أنور باشا خطة نيدرماير، الذي كان يحتاج إلى موافقة برلين أيضا، التي ذهبت أفكارها في اتجاه آخر ورفضت فكرة تدمير مصافي وأنابيب النفط، وقالت بضرورة أن تستولي بعثة ألمانية أخرى في وقت لاحق على المصافي السليمة. إنتابت نيدرماير، الذي آمن أن فرصة فريدة ضاعت، نوبة غضب شديد. صحيح أن الإيكباتانا أغرقت، لكن الإنجليز تمكنوا من رفع حطامها بسرعة، وأعادوا الاتصال من جديد مع الخليج، فبقيت حقول نفط جنوب فارس الاستراتيجية سليمة في أيديهم، استخدموها خلال الحرب كلها.

لم تكن أسابيع تشرين الثاني في اسطنبول بهيجة بالنسبة إلى نيدرماير، وإن كانت الفرصة قد أتيحت له لإلحاق أعضاء مؤهلين بالبعثة قدموا من ألمانيا. وكان قد طلب في منتصف تشرين الثاني العثور على شقيقه فريتز وإرساله إليه كطبيب للبعثة. كان فريتز في هذا الوقت طبيبا في المشفى الميداني الثالث، التابع للدفاع المحلي البافاري والمعسكر قرب نورنبرج، فأبلغ قرار نقله إلى مشفى حيفا وأرسل إلى تركيا، حيث أخبره شقيقه بمهمته الحقيقية، التي ستقوده عبر بلاد ما بين النهرين إلى فارس، قبل أن يقع في أسر الإنجليز والروس، ويحط رحاله أخيرا في جورجيا[10].

10. مذكرات الدكتور غريتز نيدرماير، الموجودة في الأرشيف الحربي البافاري الرئيس في ميونيخ، وهي في معظمها صعبة القراءة أو غير مقروءة على الإطلاق.

## أحلام خطيرة

إن من ينقب في أرشيف وزارة الخارجية الألمانية ضمن سلسلة وثائق «مشاريع وأعمال تحريض ضد أعدائنا» عن «سعي إلى السيطرة عالمية» محسوب بدم بارد ومخطط بعناية، سيصاب حتما بالإحباط. من المؤكد أن ماكس فون أوبنهايم فكر بجسارة في إطار مقولات سياسة القوة العالمية الألمانية، وصمم مخططا عاما وضع أمام حكومة الرايش برنامجا مقنعا لتثوير الشرق، لكن برنامجه افتقر إلى التحضير المتأني والسند المادي، وشابه نقص في الملاك وفي التجهيزات الضرورية لتحقيقه، كما افتقر منفذوه إلى معرفة موضوعه وما يتطلبه تحقيقه من استعداد. كما أن طلقات سيراجيفو ونشوب الحرب باغتا الرايش الألماني وهو غير مستعد بعد، وليس في حوزته غير خطط الحشد الكبرى التي وضعتها هيئة أركان الحرب. لهذه الأسباب مجتمعة، كان من الحتمي أن يفضي حلم أوبنهايم «بحرب مقدسة» إلى يقظة مؤلمة.

ما أن نشبت الحرب، حتى بدأت برلين تغرق في الارتجال. بعد أن أرسل أرتور تسيمرمان، سكرتير الدولة المساعد في وزارة الخارجية، في تشرين الثاني من عام 1914 مذكرة أوبنهايم إلى المقر العام الرئيس، تأسس مركز استخباري خاص للتنسيق مع الشرق سمي اختصارا: إ. ش (إستخبارات الشرق) استقر أول الأمر وسط برلين، ضمن مكتب الرايش الكولونيالي في شارع ماور رقم 45/46، ثم انتقل إلى مقر خاص به في شارع تاوتنتسيهن رقم 19 آ، حيث تعاون أوبنهايم ومساعدوه، وفي مقدمهم فون شوفينجن، بطريقة وثيقة مع وزارة الخارجية، وكان الديبلوماسي الشاب أوتو فون فيزندونك مسؤولا عن أعمال التحريض، وتولى عضو آخر في وزارة الخارجية هو رودولف نادولني الاتصالات مع الجهات العسكرية، بصفته مقدما سابقا ورئيس القسم السياسي في الأركان العامة المساعدة.

بينما كانت الأسس التنظيمية تقوم شيئا فشيئا في برلين، كانت توقعات نيدرماير المتشائمة تتحقق في اسطنبول. وقد لخص المستشرق الألماني

إيرنست ياكه، الذي درس بين 12 و22 كانون الأول من عام 1914 في العاصمة التركية فرص تثوير الشرق، تجاربه بطريقة صاحية بعد عودته يوم 3 كانون الثاني عام 1915، ورسم صورة قاتمة في تقرير عنوانه «حول منظمة اسطنبول لتثوير المناطق المعادية»: «يتلخص الانطباع العام بأن هذه الأعمال جاءت متأخرة وبدأت بطريقة مرتجلة، وأنه لم يتم إعداد أي شيء في السلام». يؤكد تقرير ياكه، كما تؤكد وثائق الخارجية التناقض المزلزل بين الإرادة السياسية والقدرات العملياتية، وبين الأهداف المبالغ بها والوسائل التي لا وجود لها، فلا عجب أن حل الارتجال والتفكير الرغبي محل التخطيط المتأني والكشف البصير.

بيَّنت أشهر الحرب الأولى أن الأحلام الخطيرة لا تبقى دون عواقب سياسية، وهذه بدأت تبرز بوضوح منذ عام 1917/ 1918، لكنه ظهرت في برلين بعد أسبوعين من نشوب الحرب أفكار دعت إلى الربط المفهومي بين تثوير امبراطورية القيصر وتهييج العالم الإسلامي، وظهرت في 16 آب 1914 لأول مرة قسمات استراتيجية تثوير طموحة، أرادت استخدام مجموعات يهودية ـ ماركسية في روسيا ومقاتلين عقائديين إسلاميين. في هذا اليوم، تداولت برلين ورقة تتضمن «لمحة عامة عن النشاط التحريضي الذي يتم التمهيد له في العالم الإسلامي / الإسرائيلي»، تشير إلى إمكانية تحريض العالم الإسلامي بالتوازي مع عمل يستهدف زعزعة استقرار روسيا وتسريع انحلالها الاجتماعي والعسكري.

راهن استراتيجيو الثورة في هذه الافكار، التي طوروها خلال صيف عام 1914 الحار، على إيجاد حلقة وصل ديناميكية بين الجهاد الإسلامي والثوريين الروس، واعتقدوا أن التدابير التخريبية يمكن أن تنجز عبر عمل مشترك مع منظمات وشخصيات يهودية مؤهلة بصورة خاصة لبدء عملية تثوير الرايش القيصري.

أثارت: اللمحة العامة البرلينية توقعات وهمية: «كسبنا لصالح قضيتنا

منظمة الصهيونيين التي يتزعمها أستاذ في جامعة فارتبورج، وتضم مائة ألف عضو وعددا كبيرا جدا من الأنصار السريين، ويلزم تنظيمها المحكم أعضاءها بالطاعة الأكثر صرامة لقادتهم». امتزج هنا التفكير التآمري مع احترام النفوذ الدولي للمنظمات اليهودية فكانت النتيجة خليطا متفجرا.

اقترحت ملاحظات 16 آب 1914 استخدام الاتصالات مع منظمات وشخصيات يهودية من أجل أن تقوم بأنشطة تجسسية لصالح ألمانيا. هنا أيضا، كانت التوقعات مغالية إلى أبعد جد: «لهذه الأسباب، تقدم المنظمة الصهيونية لنا أداة لا تقدر قيمتها بثمن نستطيع استعمالها لخدمة استخباراتنا ونشاطنا التحريضي في الخارج، وخاصة منه منطقة الرايش الروسي». كانت برلين تأمل في الحصول على دعم فعال لأعمالها التخريبية: «وبما أن جميع إمدادات الجيش الروسي من الحبوب والمواشي تتم بواسطة وسطاء يهود، فإن الصهاينة سيكونون أداة فاعلة في يدنا، نستطيع بواسطتها عرقلة التعبئة العامة الروسية[11]، وتجويع الجيش الروسي».

ليس بالإمكان الحديث عن قيام «تحالف ألماني مع اليهودية العالمية» عام 1914، ومع ذلك، كان «للمحة العامة» ارتباط بالواقع السياسي أظهرته نقطتان: أولاهما أن عددا كبيرا من اليهود الروس عاشوا في ألمانيا منذ فشل ثورة 1904/ 1905، وكانوا على استعداد للعمل بعد نشوب الحرب مع الأركان العامة ووزارة الخارجية ضد نظام القيصر المكروه. وقد تشكلت يوم 17 آب 1914، في اليوم التالي لصياغة «اللمحة العامة» «اللجنة الألمانية لتحرير اليهود الروس» بدعم ألماني رسمي. وثانيهما أن يهود ألمانيا البرجوازيين كانوا وطنيين ومستعدين لربط مصيرهم بالرايش ولدعم السياسة الألمانية بالنصائح والأفعال.

أرسلت يوم 19 آب 1914 برقية من برلين إلى هامبورج، موجهة إلى

11. حذفت في نص الآلة الكاتبة الأصلي كلمة «تعبئة عامة» وكتب عوضا عنها «عمليات»، بما أن التعبئة العامة الروسية كانت قد تمت بالفعل، والحرب قد بدأت.

المصرفي ماكس فاربورج، شقيق مؤرخ الفن آبي فاربورج، ترجوه العثور على مرشحين ذوي خبرة في البلدان الأجنبية من أجل بعثة افغانستان الألمانية وكسبهم لها. قال نص البرقية بايجاز: «أبلغ ماكس فاربورج فورا بما يلي: يريد أنور بك إرسال ضباط أتراك من اسطنبول إلى أمير افغانستان، ويرغب أن يصطحبهم ضباط ألمان. تحدث مع بالان إن كان بضعة قباطنة من هاباج على استعداد للذهاب معهم».

كان ألبرت بالان رجل اتصال فارتبرج في هامبورج، وهو مدير عام يهودي لشركة أسفار باكيت الأميركية / الألمانية المساهمة، المعروفة باسم مختصر هو هاباج / لويد. أعلن بالان، صديق القيصر وسيد أكبر شركة ملاحة في العالم، استعداده الفوري للمساعدة. هذا الهامبورجي اليهودي المعتقد، الذي يذكرنا به اليوم سد بالان، كان وطنيا اختالت رايته الزرقاء / البيضاء/ الصفراء فوق بحار العالم، أراد مساعدة ألمانيا على التحول إلى قوة عالمية. لذلك، لم يتمكن من تحمل هزيمة الرايش وسقوط الهوهونتسولرن بعد أربعة أعوام. وعندما ظهرت أولى علامات الجنون عند آبي فارتبرج، انتحر ألبرت بالان في التاسع من تشرين الثاني عام 1918.

لكن المأساة كانت في بداياتها. أرسل ألبرت بالان إلى برلين قائمة بأسماء ضباط سفن ضليعين في اللغات من أسطوله، هم ضباط مدفعية احتياطيون لديهم خبرة في البلدان الأجنبية، يجيدون اللغتين الإنجليزية والفرنسية، لكن أحدا منهم لم تكن لديه معرفة بالشرق. وكان بين الاشخاص الذين زكاهم بالان بالحاح كورت ألبرت فاجنر، وهو ملازم أول احتياط وعضو في البحرية التجارية الألمانية له من العمر ثلاثة وثلاثون عاما، أظهر في السنوات التالية مراسا غير عادي ووصل إلى كابول مع نيدرماير، وقدر له أن يلعب دورا خاصا عام 1918، حين ظهرت من جديد في سنوات الحرب الأخيرة فكرة استخدام الثورة في روسيا لصالح السياسة الألمانية في أفغانستان وآسيا الوسطى.

## ما وراء البوسفور

انطلق أوسكار نيدرماير يصحبه شقيقه وبقية أعضاء البعثة الألمانية في 5 كانون الأول عام 1914 من اسطنبول نحو الشرق، فاجتازوا البوسفور بواسطة العبارات، وقطعوا القسم الأول من رحلتهم بالقطار، وصولا إلى محطة حيدر باشا للسكك الحديدية، الواقعة على ضفة البوسفور الآسيوية. عبر الرحالة الأناضول دون عناء، ثم بدأت المصاعب تواجههم بالتدريج، فاجتازوا في 10 و 11 كانون الأول جبال طوروس على عربات تجرها الثيران، ووصلوا يوم 13 منه إلى الإسكندرون، حيث التقوا بفاسموس ومن كان قد سبقهم من أعضاء البعثة.

تردت أجواء المجموعة الألمانية وازدادت سوءا، فقد تكفل الملل والعداء الشخصي والكحول بتهييج الأمزجة، وعاد القوم من جديد إلى الشجار حول تركيب اللجنة القيادية. في الوقت نفسه، كان اهتمام الجهات التركية بتقديم دعم قوي إلى بعثة تركية / ألمانية في أفغانستان يتناقص. ومع ذلك، أصر نيدرماير وفاسموس على الذهاب إلى الشرق وتركا اسكندرون يوم 21 كانون الأول 1914، بعد بضعة أيام مزعجة، قاصدين حلب وبغداد، اللتين كان تقدمهما إليهما سهلا، استخدما خلاله معظم الأحيان عربات سفر محلية مريحة وخيول، امتطاها الرجلان وتقدما قافلتهما الصغيرة، التي سارت طيلة أسابيع ثلاثة بمحاذاة الفرات، ومرت بتلال وخرائب وبقايا أسوار، وبلغ من حين لآخر خياما بدوية وبقاع رعي خضراء. كان فريتز نيدرماير يدون ملاحظات في دفتر يومياته ويرسم، عندما يتاح له الوقت، تخطيطات صغيرة عن البلاد والناس. أخيرا، رأى الألمان أمامهم غابات نخيل بغداد، ثم دخلوا المدينة من بابها الغربي وعبروا نهر دجلة على جسر عائم.

قصد نيدرماير بعد وصوله مباشرة رؤوف بك، الآمر التركي المختار لبعثة أفغانستان. لكن هذا العضو في مجموعة الأتراك الفتيان القيادية، الواثق

من نفسه والطموح، أبلغ ضيفه أن حكومته تخلت عن البعثة. تبين، عندئذ، أن عرض أنور باشا المغري في آب من عام 1914 حول دخول الأتراك والألمان سوية إلى الهند بصحبة الأمير لم يكن غير سراب، وأنه كان هناك توترات ومنافسات وتباينات شديدة في الرأي حول الشرق داخل قيادة الأتراك الفتيان. والحق، إن رؤوف بك لم يكن منافسا فقط لأنور باشا، بل رأى وضع تركيا الاستراتيجي الإجمالي بمنظار مختلف، فبينما اعتقد أنور باشا أن التعاون مع ألمانيا سانحة تمكن بلاده من ممارسة سياسة وحدة إسلامية كبيرة الأبعاد، قال رؤوف بك إن روسيا القيصرية كانت تقليديا العدو الأكثر خطورة للإمبراطورية العثمانية، وتساءل: إذا كان التناقض البريطاني/الروسي قد منع في الماضي استيلاء الروس على المضائق البحرية، لماذا ندمر اليوم الإمبراطورية البريطانية بالتعاون مع الألمان؟. أليس من الأفضل مراعاة الإنجليز واستخدام قوتهم ضد روسيا؟. حين أنهى رؤوف بك مساره السياسي/الديبلوماسي عام 1945 كسفير في لندن، تلقى رسالة شكر من ونستون تشرشل، اعترافا بدعمه الدائم للتعاون البريطاني/التركي.

بلغت التوترات بين الألمان والأتراك درجة من الحدة في بغداد جعلت رؤوف بك يأمر بنزع سلاح البعثة ووضع تجهيزاتها في مستودع تركي. لكن الأتراك أعادوا ما صادروه، فيما عدا البنادق الرشاشة، بعد احتجاج قوي من سفارة ألمانيا في اسطنبول، وكان فيلهلم فاسموس قد أرسل يوم 18 كانون الثاني من عام 1915 تقريرا «سريا جدا» حول ما حدث إلى برلين، كتب بعض مقاطعه بشيفرة رقمية يرجو فيه رؤوساءه إعفاءه من المسؤولية المشتركة عن المشروع، بعد أن أحبطته شجارات أعضاء البعثة والخيبة الناجمة عن فشل قيام البعثة التركية / الألمانية. نصح فاسموس، في الوقت نفسه، بحل لجنة القيادة ووضع قيادة البعثة في يد واحدة وقال: «يستحيل قيام عمل مزدهر في ظل التضارب داخل القيادة الألمانية، كما يبدو جليا مما يحدث هنا. وبصراحة، فإن البعثة القيصرية تعطلت، وقد دفعني هذا إلى الاعتراف

شخصيا بحق الملازم أول السيد نيدرماير في الانفراد بالقيادة، خاصة وأن البعثة القيصرية تضع معظم ثقتها فيه».

في اليوم نفسه الذي أرسل فيه فاسموس تقريره، أخبر السفير فانجنهايم من اسطنبول مستشار الرايش فون بتمان/ هولفيج عن تقرير أرسله نيدرماير، يجري فيه كشف حساب صاح يؤكد استحالة قيام بعثة أفغانية بقيادة تركية، وضرورة تقدم أعضاء البعثة الألمان بمفردهم إلى فارس، لعقد صلات خاصة بهم مع كابول، مع أنه ليس بينهم وبين الحكومة الأفغانية أية صلات منذ نشوب الحرب، وأن تقويم الألمان للوضع اعتمد حصرا على تطمينات وشروح أنور باشا.

اقترح نيدرماير تقسيم البعثة إلى مجموعات صغيرة بمجرد أن تدخل بلاد فارس، على أن يتفرق أعضاؤها ويمارسوا عملهم التحريضي والدعاوي ضد الروس والبريطانيين بطريقة لامركزية. يستطيع الألمان، متى انقسموا إلى مجموعات صغيرة لا صلات بينها، تحريض الشعب الفارسي على أكل وجه، ويمكن تجميع المجموعات من جديد خلال وقت قصير لاستئناف تقدمها المشترك نحو أفغانستان. ورأى أن أصفهان هي قاعدة دعم رئيسة لأنشطة البعثة، يجب الانطلاق منها لاستكشاف وتحضير طريق التقدم اللاحق نحو أفغانستان.

كان نيدرماير ينوي استئناف الرحلة بأقصى سرعة ممكنة من حمدان إلى طهران. وفي الختام، أراد التوغل نحو خراسان الجنوبية، إلى المنطقة المحيطة بمشهد، التي كان قد استطلعها عام 1913، ليبدأ انطلاقا منها المفاوضات السرية مع كابول. من أجل إعداد المسير نحو فارس، قرر نيدرماير أن يجتاز شونه مان، أحد أعضاء البعثة، الحدود مع فارس، قبل وصول بقية أفرادها إلى هناك، لتجنيد مرافقة من السكان المحليين وعقد صلات مع ضباط الدرك الفارسي السويديين، المتعاطفين مع ألمانيا. وأمره

أن يذهب إلى أذربيجان عبر طهران، بعد أن يقيم قاعدة ألمانية في كرمنشاه. في الختام، أخبر السفير فانجنهايم المستشار بيتمان / هولفيج أنه: «أجاب نيدرماير بموافقته على شروحه، وأعلم في الوقت نفسه مبعوث ألمانيا في طهران بما يحدث».

انفصل فيلهلم فاسموس يوم 28 كانون الثاني عام 1915 عن نيدرماير والبعثة الألمانية. وسافر في سفينة مخرت النهر باتجاه مصبه، ليتوغل بوسائله الخاصة في منطقة النفوذ البريطانية جنوب فارس، حيث كان يعرف البلاد والعباد بفضل نشاطه السابق، وله أصدقاء بين زعماء القبائل، وينوي الإستعانة بمقاتلي القبائل من أجل خوض حرب صغيرة ناجحة ضد البريطانيين تدوم حتى نهاية الحرب العالمية. وقد لقب فاسموس بـ«لورانس الألماني».

صار نيدرماير الآن القائد الوحيد لبعثة أفغانستان الألمانية، وظهرت منذ مطلع عام 1915 تقارير وإرشادات تتحدث عن «بعثة نيدرماير». وأبلغ السفير فانجنهايم يوم 25 آذار من عام 1915 المستشار بيتمان / هولفيج أن «نيدرماير يحكم قبضته على رفاقه، بعد أن تخلص من العناصر غير الملائمة، وهو يترك انطباعا مقنعا يجعلني أضع ثقتي الكاملة فيه». من جانبه، أجرى نيدرماير عملية انتقاء صارمة بين أعضاء البعثة، وتخلى عن الذين لم تتفق مواصفاتهم مع متطلباته. أما من تبقى من الأعضاء السبعة عشرة، فقد عوض استعدادهم للعمل وتصميمهم عن نقص معرفتهم باللغة والبلاد.

## الرحيل إلى فارس

انعقد في الحادي عشر من شباط عام 1915 مجلس حرب في اسطنبول[12]، شارك فيه من الجانب الألماني المارشال فرايهر فون دير

12. أخبر فانجهايم المستشار بيتمان / هالفيج يوم 13 شباط عن مجلس الحرب. الأرشيف الوطني، القسم 137/ 140.

جولتز، والمارشال ليمان فون ساندرز، والجنرال برونسارت فون شيللندورف، المبعوث القيصري في طهران، والأمير هاينريش الحادي والثلاثون رويس والملحق العسكري الألماني. وكانت قيادة الأتراك الفتيان ممثلة بأنور باشا وطلعت باشا، ومثل الملكية المزدوجة مبعوث فيينا في فارس جراف لوجوتيتي. أما عن الجانب الفارسي فتحدث مبعوث طهران في تركيا والضابط السويدي نيلز دو ماري، الرائد في الدرك الفارسي، الذي كان في رحلة إلى طهران وتعاطف كأعضاء كثيرين في الفئة العليا السويدية المحافظة مع الرايش الألماني.

كان موضوع المجلس هو العمل التالي ضد الروس والبريطانيين في فارس والمهام المقبلة للبعثة الألمانية. افتتح السفير فون فانجنهايم المداولات وأكد أن الحكومة الفارسية مستعدة من حيث المبدأ للتعاون مع قوى المحور، لكن النفوذ الروسي والبريطاني هو الذي يمنعها من الانحياز العلني إليها. وافق المبعوث الفارسي على هذا التقويم، وأمل أن تبدأ الوحدات التركية عملا وشيكا ضد الروس والبريطانيين، وحذر في الوقت نفسه كممثل للحكومة الفارسية المركزية من المراهنة على القبائل التي لا تخضع لرقابة طهران. وقد أيده نيلز دو ماري، الضابط السويدي قائلا إنه لا يمكن الاعتماد على عون القبائل الفارسية، لأنها غالبا ما كانت في خدمة البريطانيين، ولأن قيمتها القتالية ضد وحدات يقودها أوروبيون «تساوي الصفر». وقال إن خمسمائة دركي فارسي يقودهم ضباط أوروبيون تمكنوا من إلحاق الهزيمة مرارا وتكرارا بآلالاف من مقاتلي القبائل. وأخبر المشاركين أن عديد الدرك الفارسي، الذي يقوده السويديون، بلغ سبعة آلاف رجل مطلع عام 1915، ويمكن زيادته إلى عشرة آلاف. وكان هذا الجهاز قد أنشئ عام 1911 بمبادرة بريطانية، عندما أراد البريطانيون إقامة ثقل عسكري مقابل أفواج القوزاق العاملين في شمال فارس، ثم استدعت الحكومة الفارسية ضباطا سويديين ليكونوا قادة للوحدة الجديدة، التي كانت معادية تقليديا

للروس. تكوّن الدرك من ستة أفواج عام 1914، وكان الألمان يعلقون آمالا كبيرة على الضباط السويديين.

حاولت فارس أول الأمر البقاء بعيدة عن الحرب، فأعلنت حيادها يوم 3 تشرين الأول عام 1914، وطالبت بسحب القوات الروسية من إقليم فارس الأذربيجاني، أي من منطقة تبريز وبحيرة أورميا، لكن روسيا رفضت. وكان يوجد في تبريز حامية روسية قوية مؤلفة من خمسة آلاف رجل، بينما احتلت وحدات روسية مواقع مهمة على الحدود الفارسية / الأفغانية، وحولت علاقات القوة السائدة حياد فارس إلى مجرد وهم، خاصة وأن مجموعات عسكرية إنجليزية قوية كانت تراقب منابع النفط داخل منطقة النفوذ البريطانية، وأن بوشهر وبندر عباس تحولتا بصورة منهجية إلى قاعدتين عسكريتين بريطانيتين. لم يكن لدى الروس والبريطانيين أي مبرر قانوني لإبقاء قواتهم في أراضي الدولة الفارسية المستقلة، بعد إعلان حيادها. لكن القوة التي تتقدم على الحق حولت فارس إلى ميدان حرب.

أبلغ انور باشا المبعوث الفارسي في 11 شباط أن فرقة تركية قوامها عشرة آلاف رجل ستهاجم إقليم أذربيجان الذي يحتله الروس، وأن طلائعها عبرت الموصل، وستصل خلال حوالي أربعة أسابيع إلى تبريز. وشرح المارشال كولمار فون دير جلوتز للمبعوث تفاصيل مهمة القوات التركية، وهي تتلخص في جعل إقليم أذربيجان الفارسي بوابة وجسرا لعمليات تركية لاحقة. بما أن هذا النبأ كان مقلقا بالنسبة إلى مبعوث فارس، فقد أكمل السفير فون فانجهايم شروح المارشال بطريقة أراد لها أن تبدد هموم سامعه، أعلمته أن ضباطا ألمان سيرافقون القوات التركية للحيلولة دون وقوع تعديات، ولتهدئة شعب فارس.

بعد هذه التطمينات، اتفق أنور باشا والمبعوث على إعادة الإقليم إلى فارس بعد نهاية الحرب دون اقتطاع أي جزء منه. عندئذ، ربط المبعوث

موافقته على الإجراء التركي بشكوى صريحة ضد سلوك ضباط الأتراك في المناطق الفارسية الخاضعة لرقابتهم. وعبر السفير فون فانجنهايم من جانبه عن الرغبة في أن لا يتعسف الموظفون الأتراك الثانويون في معاملتهم للبعثة الألمانية إلى فارس وأفغانستان، وأن لا يلقوا القبض عليها أو ينهبوها، وأضاف أنه لا غنى عن الثقة والتفاهم المتبادل. فهم أنور باشا إشارة السفير إلى نزاع نيدرماير مع رؤوف بك في بغداد، وأجاب أن بعض الضباط الألمان تعاونوا بصورة طيبة مع زملائهم الأتراك، وبعضهم الآخر ـ وكان يعني نيدرماير ـ «متعجرفون إلى أبعد حد ولا يطاقون». لتفادي مثل هذه النزاعات مستقبلا، تم الاتفاق على إصدار الأوامر إلى نيدرماير منذ تلك اللحظة فصاعدا عبر السفارة الألمانية في اسطنبول وملحقها العسكري وحدهما.

سجن الحليف التركي نيدرماير شهرا آخر في بغداد. حين مر الأمير رويس، مبعوث ألمانيا إلى فارس فيها، نجح في كسر ممانعة الجهات العسكرية التركية المحلية، وغادر نيدرماير في 28 آذار 1915 مع قافلة المبعوث، التي ضمت أيضا الرائد السويدي دو ماريه. سار المسافرون على طريق الملوك القديم، التي قطعها الميديون والأخميديون والساسانيون، قبل أن يصلوا إلى خانقين: الموقع الحدودي التركي، حيث اعتقلهم الموظفون الأتراك من جديد، ولم يفرجوا عنهم قبل أحد الفصح في 5 نيسان 1915، يوم وصولهم إلى موقع حدودي فارسي هو قصر شيرين.

قام الحاكم الفارسي في اليوم التالي بزيارة مجاملة إلى المبعوث الألماني فون رويس، ثم زار أوسكار وفريتز ماير الفارسي في قصره الواقع داخل تحصين يعلو صخورا جرداء تشرف على المكان الصغير. عالج فريتز بعض المرضى، ثم جلس وشقيقه إلى مائدة الحاكم الغنية بمأكولات بينها دجاج طهي بطريقة خاصة، ولحم ضأن مطبوخ مع ثمار حلوة المذاق، وقدور عملاقة مليئة بالأرز والجبن واللبن. وقد سجل فريتز نيدرماير بدقة

كيف حاول الحاكم استخدام الشوكة على الطريقة الغربية، قبل أن يتخلى عنها في النهاية ويأكل بيده من القدر على الطريقة التقليدية. كانت الإقامة التي دامت يومين في قصر شيرين بداية طيبة للمشروع الفارسي، وقد وجد فريتز الوقت الكافي لرسم صورة لقصر الحاكم في يومياته، مع أن الطبيب البافاري لم يكن سعيدا بالأخبار، وقال في يومياته بأسى: «لا يصلني، لأسفي، غير أخبار سياسية قليلة».

واصل الرحالة طريقهم في السابع من نيسان 1915، وعبروا حوافي جبال بلاد ما بين النهرين المرتفعة في طريقهم إلى الهضبة الإيرانية، فوصلت القافلة في السادس عشر من الشهر نفسه إلى كرمنشاه، حيث تقاطعت طرق الاتصال بين الشرق والغرب، وبدأت الطرق المفضية إلى طهران في الشمال وشيراز في الجنوب. وكان القنصل الروسي والبريطاني قد راقبا المدينة حتى الآن بواسطة القوزاق والجنود الهنود. لكن شونمان، الذي كان نيدرماير قد أرسله إليها بعد أن زوده بمال كثير، كان قد دعا للألمان في المدينة، ونهج في تغيير مزاج السكان، الذي صار معاديا للروس والبريطانيين. حين اقتربت قافلة نيدرماير ورفاقه من كرمنشاه، كان شونمان وكوكبة قليلة من فرسان استأجرهم يخترقون شوارعها على صهوات جيادهم. وبعد قليل، غادر القنصلان المعاديان ومرافقوهم المسلحون المدينة، بينما كان السكان يهتفون للقادمين الغرباء.

أرسل نيدرماير بقية أعضاء البعثة من كرمنشاه إلى أصفهان، بعد أن جعل قيادتهم لخبير في البلاد واللغة هو المترجم فريتز زايلر، وذهب هو نفسه مع قافلة المبعوث الألماني في اتجاه الشرق نحو طهران، عاصمة فارس، التي وصلها في الخامس والعشرين من نيسان عام 1915، وكان يعرفها حق المعرفة من إقامته فيها شتاء عام 1912/ 1913. تصرف نيدرماير بحذر وتحفظ أول الأمر، لأن العاصمة الفارسية لم تكن ترحب بالألمان. وقد كتب إلى برلين يقول: «هناك عدد كبير من الأرمن سلحهم الروس

ويبدو أن لديهم رغبة في العمل ضد الألمان». ونصح بسلوك حذر: «سيكون غباء شديدا من جانبنا، لو أردنا توجيه ضربة في الظروف الراهنة». لكنه أبدى استعداده للرد بتدابير معاكسة قاسية إذا ما استخدم الروس والبريطانيون العنف ضد الألمان: «أصدرت تعليمات إلى مساعدي بالاستخدام الفوري لجميع ما في حوزتهم من وسائل ضد أعدائنا، كي يعي الآخرون أيضا موقفنا الحاسم هذا».

بسبب هذا الجو المعادي، نصح نيدرماير بنقل مقر البعثة الألمانية، واقترح أن تذهب بصحبة الحكومة الفارسية إلى أصفهان. إن وضع العاصمة لم يكن يريحه: «ستبقى طهران نقطة غير آمنة، لأن الروس يستطيعون إرسال قوات كبيرة إليها خلال أيام قليلة، انطلاقا من بحر الخزر وقزوين، ولأن حكومتها ستكون تحت ضغط أعدائنا الدائم». لكن الجهود التي بذلت لإقناع الحكومة الفارسية بالانتقال إلى أصفهان بقيت دون نتيجة.

بدأ نيدرماير بناء شبكة من العملاء وسط صعوبات كبيرة. وهناك إيصالات تؤكد أن الصيدلية القيصرية في طهران كانت موقعا مهما بالنسبة لعمله، لأن الفرس كانوا يستطيعون الالتقاء فيها بالأجانب دون إثارة الشبهات، ويستطيعون تسليم المعلومات باعتبارها وصفات طبية، واستلام ليس فقط الأدوية بل كذلك النقود، علما بأن ما كان نيدرماير يريده لم ينصب فقط على تكوين صورة دقيقة عن الوضع، بل تعدى ذلك إلى إيجاد وتوزيع الأسلحة والذخائر.

## إشاعة الفوضى في فارس

توزع أعضاء البعثة الألمانية على أماكن مختلفة في الفترة بين آذار ونيسان عام 1915. فكانت مجموعة طهران، التي قادها نيدرماير نفسه، تتألف من تيرمالر بيتر باشن، ووصيف نيدرماير هانس ياكوب، وكورت فاجنر، ضابط هاباح / لويد الذي أوصى به ألبرت بالان. وقاد مجموعة أصفهان خبير الفراش البافاري الأستاذ إيريش تسوجماير، الذي كان يعمل بصفته

قنصلا ألمانيا، وكان في مجموعته الضابط السابق جريزنجر، الملازم الثاني في فوج مدفعية الحرس الرابع، وجونتر فوجت، ودكتور فريتز نيدرماير كطبيب للبعثة وفايلر كمترجم. وكان خبير السلاح فريدريش والمبرق فاستينج مسؤولين عن الدعم التقني. وكانت علاقات هذه المجموعة مع فوج الدرك المرابط في أصفهان وضباطة السويديين ممتازة، بينما تلقت دعما فاعلا من تاجر ألماني يشرف على القنصلية اسمه يوجين.

تكونت مجموعة كرمنشاه من التاجر شونمان، الذي عينه نيدرماير قنصلا ألمانيا، ورحالة أفريقيا فيلهلم باشن، الذي بقي شقيقه في طهران، وقد حظي الرجلان بدعم وعون الدرك المرابط في المدينة وضباطهم السويديين. وعمل فاسموس بصورة مستقلة عن جماعة نيدرماير في شيراز وجنوب فارس، في حين بقي الكيميائي وملازم الاحتياط فينكلمان في قصر شيرين، لإدامة الاتصال مع منطقة ما بين النهرين.

حسب خطة نيدرماير، كان يجب بدء أعمال متفرقة مطلع وصيف عام 1915 تستهدف إشاعة الفوضى والاضطراب في منطقتي النفوذ الروسية والبريطانية، واستنفار القوى الديموقراطية والقومية الفارسية المتعاطفة مع ألمانيا، وتحريضها ضد الروس والبريطانيين، دون استبعاد إمكانية اللجوء إلى العنف. وقد لفت السفير فانجنهايم يوم 21 آذار 1915 أنظار وزارة الخارجية إلى «أن المشروع الذي سيفضي حتما إلى إزاحة القنصليات المعادية» قد تكون عواقبه مزعجة بالنسبة إلى الحضور الألماني في طهران. وبعد أربعة أيام، في 25 آذار، عبر السفير عن رأيه بوضوح أكبر. عمل في كرمنشاه ضد الألمان القنصلان الروسي والبريطاني قبل وصول قافلة البعثة، وعمل كذلك المدير الإنجليزي للبنك الفارسي، الذي اعتبر نيدرماير على حد قول السفير إلى مستشار الرايش «إزاحته مطلوبة، وإن كان قد أحجم بصورة موقته عن ذلك استجابة لرغبتي، لأن سياستنا والسياسة النمساوية في طهران يمكن أن تتأثر سلبا بسبب ذلك».

لم يمانع السفير فانجنهايم في «إزاحة» القناصل المعادين التي اقترحها نيدرماير، لكنه رأى أن المشاركة الألمانية فيها يجب أن تبقى سرية، وقد أبلغ مستشار الرايش أنه «لن يقاوم هذا المخطط إذا لم ينفذ تحت راية ألمانيا، بل على يد القبائل فارسية. وأنصح بإصدار أمر برقي مباشر إلى نيدرماير يحمل هذا المعنى». أما عزم ألمانيا على دحر النفوذ الروسي والبريطاني في فارس بالعنف، فقد تم التمسك به، وكان بين أهداف ألمانيا المهمة البنك الامبراطوري في فارس المراقب إنجليزيا، وبنك ديسكومبت المراقب روسيا، اللذان تقرر طرد ممثليهما والاستيلاء على أموالهما.

وصف نيدرماير في مذكراته بطريقة مشخصة كيف بدأ الروس والبريطانيون يلطفون سلوكهم في منطقتي نفوذهم، بالنظر إلى الوضع غير المستقر في فارس الوسطى: «نقل البريطانيون والروس أكثر فأكثر نقود المصارف الإنجليزية والروسية الفضية من مناطق فارس الوسطى بأوضاعها غير الآمنة إلى المناطق الطرفية المحتلة، مع ما أحدثه هذا من ضرر جسيم بالنسبة إلى الاقتصاد الفارسي وعملنا الخاص». لم يكن نيدرماير مستعدا للبقاء مكتوف اليدين حيال هذا التطور: «كان من الملح اتخاذ خطوات ضده، لكنها كان يجب أن تحمل طابعا فارسيا صرفا». وبالفعل، فقد سقط مدير مصرف إيسكومبت الروسي في أصفهان، وكان إحدى القوى المحركة ضد الألمان، ضحية اعتداء قام بها أحد الفرس في منتصف شهر أيار من عام 1915. وتعرض القنصل العام البريطاني في المدينة لمحاولة اعتداء مماثل، قتل خلالها أحد خدمه. لم يشك الإنجليز في مسؤولية الألمان عن الاعتدائين، لذلك حاولوا قتل فاسموس في جنوب فارس، مع أنه نادرا ما يعتد في حالات الحرب بحوادث القتل المتفرقة التي تقع هنا وهناك[13].

13. هذا ما تقوله ملاحظة قاسية لكنها صحيحة أدلى بها كريستوفر سايكس «فاسموس، لورانس الألماني، لندن 1935، ص 115.

تفاءل السفير الألماني في اسطنبول بالتطورات في فارس، فختم تقريره إلى مستشار الرايش يوم 25 آذار 1915 بأفكار مفعمة بالأمل وتأملات بعيدة المدى: «علي أن أدرس منذ الآن أفكارا تتعلق بمن سيدير بنك الدولة الفارسي، إذا ما قيض لنا طرد الإنجليز من فارس». وحث على إرسال مصرفيين ألمان ملائمين إلى بغداد يمكن أن يوزعوا بعد وصولهم على طهران وغيرها من مدن فارس المهمة. إلى هذا، نصح فانجنهايم المستشار أخذ مسألة ممارسة الرقابة على بريد وبرق فارس بالحسبان. وبعد يومين، في 27 آذار أرسل إلى المستشار ثلاثة تقارير تكميلية من نيدرماير، «القائد الحالي لبعثتنا الأفغانية».

لم تتفق التطورات اللاحقة بأي حال من الأحوال مع التوقعات البهيجة، وبدا الوضع منذ بداية حزيران مختلفا أشد الاختلاف عن ذاك الذي تم توقعه في آذار. وقد أدرك الألمان بعد سفر نيدرماير من بغداد بفترة قصيرة، لماذا حاول الحلفاء الأتراك بإصرار منع البعثة من الذهاب خلال فصل الشتاء إلى فارس. كان رؤوف بيك قد حشد قوات تركية قوية على الحدود التركية / الفارسية، من أجل تحقيق خطط توسعية واضحة كان يسعى إليها. وبخلاف ما أكده أنور باشا يوم 2 شباط عام 1915 في اسطنبول بحضور الألمان والفرس، فإن هدف القيادة التركية لم يكن مكافحة الروس والبريطانيين في الأراضي الفارسية، بل كان بالدرجة الأولى الاستيلاء على مناطق منها. في آذار عام 1915، جرت أولى معارك الحدود بين الترك والفرس، فتم صد الأتراك أول الأمر، لكن هجوما جديدا مكّن رؤوف بك من اجتياز الحدود واحتلال منطقة قصر شيرين، حيث تعرض السكان المحليون لتعديات جسيمة قامت بها قواته. وفي حزيران من عام 1915 بدا وكأن الوحدات التي يقودها تريد التقدم إلى كرمنشاه وأصفهان.

أدى هذا السلوك التركي، حسب تقدير نيدرماير، إلى تدمير فرص التعاون الألماني / الفارسي. وقد رجت بعثة طهران المراجع الألمانية في

اسطنبول التدخل بإصرار لدى الحكومة التركية لوقف رؤوف بك، وإلا انقلبت القبائل الفارسية على الأتراك وطلبت دعم الروس والبريطانيين. ووصف يوم 12 حزيران عام 1915 في تقرير البعثة الخامس سلوك الحكومة الفارسية، الذي يزداد حرجا، وتبدل مزاج شعب فارس، الذي لم يكن الأتراك وحدهم مسؤولين عنه. في 23 أيار 1915 دخلت إيطاليا الحرب العالمية إلى جانب دول الإئتلاف الودي، فأحدث تعزيز التحالف المعادي انطباعا قويا على الفرس. بينما كان قرب القوات الروسية وحضور العملاء البريطانيين يجعلان من طهران تلك المدينة، التي «تضم قوة أعدائنا الأكبر»، حسب تعبير نيدرماير.

بالمقابل، أظهرت الدعاية الألمانية تأثيرها في الأقاليم الفارسية، حتى أن نيدرماير آمن في حزيران من عام 1915 بوجود فرصة ملائمة لإقامة منطقة نفوذ ألمانية خاصة بين أصفهان والحدود التركية، دون أن يتخلى عن أنشطته في شمال فارس، رغم الوقت الطويل الذي استغرقته قيادة ومراقبة نظام جاسوسية شمل طهران ومناطق البلاد الشمالية، حيث استهدفت محاولته تثبيت الروس عسكريا في تركستان المتمردة، وأرسل لهذه الغاية عملاء من طهران إلى آسيا الوسطى.

لكن الشبكة الألمانية تمزقت، فقد عرف البريطانيون منذ منتصف حزيران بالتعاون السري بين ضباط الدرك السويديين والبعثة الألمانية، ووقع مفتاح تشفير الاتصالات السرية بين السويديين والجهات الألمانية في أيديهم. في هذا الجو، لم يستطع نيدرماير الإفادة كثيرا من قيام السفير النمساوي في طهران، الجراف لوجوتيتي، بوضع الجنود النمساويين / المجريين الفارين إلى العاصمة الفارسية تحت تصرفه، ورجا برلين واسطنبول تزويده بكميات كبيرة من المواد المتفجرة للقيام بأعمال تخريب ضد إمدادات الروس، علما بأنه كان يعرف الأهداف الملائمة لعملياته منذ رحلته الفارسية الأولى، وقد أخبر برلين في 18 حزيران أن: «مكان استخدام المتفجرات سيكون في باكو

الشارع الأيمن الذاهب إلى قزوين، والجسر على نهر تدشن وأموداريا في تركستان، والقيام بعمليات متزامنة انطلاقا من فارس وأفغانستان.

كانت المحطة اللاسلكية في أصفهان صلة الوصل الإخبارية الوحيدة لدى نيدرماير مع اسطنبول وألمانيا. وكان لا يزال بوسعه الاحتفاظ بصلة منتظمة مع أعضاء بعثته المتفرقين بمن فيهم فاسموس في جنوب البلاد.

عرف الألمان من البرقيات الملتقطة أن البريطانيين كانوا يعرفون نشاطهم. بل إن الجنرال كوكس، القائد البريطاني الأعلى في فارس، كان يعرف تركيب ومهام وأعضاء البعثة الألمانية، لذلك كان نيدرماير محقا عندما أصدر في 27 نيسان 1915 تعليمات أمنية صارمة لبعثته، وأكد على تدمير جميع الوثائق بمجرد اختزالها أو كتابتها بالحبر السري. كان نيدرماير يعرف أن الاستخبارات السرية البريطانية تتابع بأعلى قدر من الاهتمام أنشطة الألمان، وأن البريطانيين كانوا يرون منذ آب 1914 في هجوم أفغاني على الهند يتلازم مع انتفاضات معادية لهم فيها الخطر الرئيس على إمبراطوريتهم.

## صيف 1915

تفاقم الوضع في الشرق خلال شهر تموز من عام 1915. وكانت قوات بريطانية قد نزلت يوم 25 نيسان على شاطئ غاليبولي، كي تنطلق من هناك وتحتل اسطنبول. لكن هذه القوات، التي انحشرت في رؤوس جسور ضيقة وتعرضت لنيران المدفعية التركية ولحر الصيف اللاهب، واجهت كارثة في الفترة التالية. لكن نهاية معركة الدردنيل كانت لا تزال مفتوحة صيف عام 1915 مثل تطورات بلاد ما بين النهرين، حيث كان البريطانيون يتقدمون نحو الشمال، إلى أن طوقتهم قوات تركية يقودها المارشال كولمار فون دير جلوتز قرب كوت العمارة وحاصرتهم وأجبرتهم على الاستسلام في نيسان من عام 1916.

بالتلازم مع الهجمات البريطانية في الدردنيل وبلاد ما بين النهرين،

تقدم الروس في إقليم أذربيجان الفارسي خلال صيف عام 1915، وتحركوا ببطء من قزوين نحو الجنوب الغربي في اتجاه كرمنشاه. تصاعدت، في هذا الوضع الغامض سياسيا وعسكريا، التوترات بين الأمير رويس، المبعوث الألماني في طهران، ونيدرماير، الذي احتكر بمحطة أصفهان البرقية تبادل المعلومات مع ألمانيا، وقاد أعضاء بعثته باستقلالية تامة، ولم يكترث لتوجيهات المبعوث، وخاض حربا صغيرة خاصة على مسؤوليته.

أرسل الأمير رويس يوم 4 تموز عام 1915 برقية عبر اسطنبول إلى برلين، طلب فيها «إصدار أمر عاجل من هيئة الأركان العامة إلى نيدرماير يذكره بإلحاح أن مهمته الرئيسة هي أفغانستان». لم يكن نيدرماير، الذي قدم بصحبة رويس من بغداد إلى طهران، ينوي في هذه اللحظة الذهاب إلى أفغانستان. ورأى أن تطور الأوضاع يجعل مهمته الرئيسة تنصب على تشويش العمليات الروسية والبريطانية الدائرة. وقد أصاب رويس في لفت نظر برلين إلى نية نيدرماير «مبادلة بعثة أفغانستان المليئة بالمخاطر بتثوير فارس الأكثر إثارة للاهتمام»، قبل أن يضيف: «بما أنه يزعم عدم خضوعه لأية جهة غير الاركان العامة، لكنه يمارس اليوم سياسة خاصة به لا تتفق وسياسة المفوضية، فإن موقف الأخيرة صار صعبا إلى أبعد حد. كما أنه يحجب عنا في هذه اللحظة المعلومات والأنباء اللاسلكية، التي اعتمد عليها بسبب نقص الاتصالات البرقية». رجا الأمير رويس تعيين قنصلين جديدين في شيراز وأصفهان، لأن من عينهم نيدرماير قنصلين من أعضاء بعثته ينفذون أوامري بصورة مشروطة، ويمكن أن يتم استدعاؤهم من هنا في أية لحظة. ورأى، أخيرا، أن استراتيجية نيدرماير القائمة على التثوير وإشاعة الفوضى والاضطراب «تسيء بقوة» إلى موقفه تجاه حكومة فارس المحايدة رسميا.

اهتم السفير في اسطنبول فون فانجنهايم بالأمر، وأخبر المستشار فون بيتمان / هالفيج أن الملحق العسكري في سفارته أصدر يوم 14 تموز الأمر التالي إلى نيدرماير: «بناء على توجيهات برلين أرجو الإسراع بالمغادرة إلى

أفغانستان، وإلا فإبلاغي برقيا بالأسباب التي تعوقها. أرجو أن تبادر إلى إخبار المفوضية في طهران بالأنباء البرقية التي تصلك، بالنظر إلى تزايد صعوبات الاتصالات اللاسلكية». وختم السفير تقريره بالقول: «أقترح بكل ولاء على سعادتكم إرسال توجيهات قطعية من قبلكم إلى نيدرماير».

أطاع نيدرماير الأمر وبدأ السير إلى أفغانستان، لكنه لم يفعل هذا دون اعتراض وممانعة. في 19 تموز أبلغت السفارة في اسطنبول تقرير نيدرماير إلى برلين مع رجاء وضعه بين يدي مستشار الرايش. في هذه البرقية، دافع الرجل عن سلوكه: «تقف أصفهان إلى جانبنا، مثل معظم مدن إيران التي سبق أن عملت فيها ممثليات ألمانية. أما الوسيلة الرئيسة لكسب مدينة فارس الوسطى المهمة، فهي نشر تقاريرنا الحربية البرقية انصياعا لأمر برلين». يحمل نيدرماير المبعوث الذنب في عدم إطاعة ترتيبات برلين، والتسبب في منع التحريض الناجح لشعب فارس: «بما أن الأمير رويس منع النشر رغم رغبة السكان، فإنه يتحمل مسؤولية ما حدث. وفي النهاية، يطلب نيدرماير تعليمات حول ما إذا كان تغيير أوامر برلين يتطلب وقف هذا العمل الواعد»[14].

ساندت الشعبة الثالثة ب من القسم السياسي في نيابة الأركان العامة، المسؤولة عن العلميات العسكرية السرية، تصور نيدرماير وأخبرت وزارة الخارجية يوم 25 تموز في وثيقة «سرية» بقرار الأركان العامة إرسال التوجيه التالي إلى نيدرماير: «لا نعتزم التخلي بأي حال عن المشاريع الأفغانية، لكن إيصال الأسلحة والذخائر والمواد الناسفة ليس ممكنا لبعض الوقت. من هنا، نطلب إليكم مواصلة العمل بقوة». كما وافقت الأركان على اقتراح نيدرماير مد إشاعة أعمال الفوضى الاضطراب والتخريب إلى تركستان الروسية المجاورة: «موافقون على الاقتراحات الآتية من هناك، وإن كان عليكم

14. الارشيف القومي، القسم 137/ 141.

الانتباه عند تنفيذ عملية تركستان إلى ضرورة أن تتجنبوا قدر الإمكان بعثرة قواكم من خلال التوسيع المبالغ به لمنطقة عملياتكم. سيصلكم توجيه حول تزويدكم باعتمادات مالية تتجاوز مبلغ الـ 150000 جنيه المخصصة لكم، التي ستنفق على الأسرى النمساويين». عندما أرسلت هذه البرقية من برلين، كان نيدرمايير ومرافقوه يجتازون تحت شمس الصيف الحارقة صحارى آسيا الوسطى في طريقهم إلى أفغانستان، لأنه كان قد انصاع قبل ذلك لما وصله من تعليمات برلين، وبدأ السير نحو الشرق.

قام نيدرمايير بين نهاية نيسان ومطلع تموز عام 1915 بنشاط لا يعرف الكلل في طهران، نماه وطوره بعد رحيله عنها أيضا. وقد انسحب عام 1915 مواطنون روس وبريطانيون من مناطق جنوب ووسط فارس التي غدت غير آمنة، تحت ضغط محاولات التحريض الألمانية. بالمقابل، فرت المفوضية الألمانية من طهران في تشرين الثاني عام 1915، عقب التقدم اللاحق للقوات الروسية، وبعد أن فشلت محاولة لجعل الشاه الضعيف يرحل بصحبة الألمان إلى أصفهان.

اختلف المعاصرون في تقويم عمليات نيدرمايير الخفية. يتذكر منافسه الألماني فيرنر أوتو فون هنتيج منتقدا: «ما أن وصل نيدرمايير إلى طهران، حتى اعتبر نفسه حاكما عسكريا مطلق الصلاحيات ومارس الجاسوسية والتخريب على أوسع نطاق، لأنه كان يتصرف بموارد كبيرة جدا مخصصة للبعثة بلغت في الأصل مليوني جنيه، وكان شخصية معروفة في المدينة، رغم ما اتخذه من أسماء وارتدى من أزياء مختلفة»[15]. أما في نظر بيرسي سايكس، قائد العمليات البريطانية في جنوب فارس ومضيف نيدرمايير السابق في مشهد، فان فيلهلم فاسموس كان العميل الألماني الوحيد الخطير حقا،

15. فيرنر اوتو فون هنتيج: أوسكار مايير. مخطوط على الآلة الكاتبة أشكر الأستاذ لودفيج آداميك من أجل إطلاعي عليه.

لأنه تمكن من المحافظة حتى نهاية الحرب على تحالف قبلي في شمال فارس، صمد في وجه أفواج جنوب فارس، التي كان يقودها سايكس نفسه. بينما كان العمل الألماني، الذي قاده نيدرماير بين نيسان وتموز في وسط وشمال فارس، مجرد فاصل قصير بالمقارنة مع ذلك.

اعتبرت المفوضية الفرنسية في طهران الأنشطة الألمانية، التي حدثت صيف عام 1915، فائقة الخطورة. بخلاف الروس والبريطانيين، لم يكن الفرنسيون في فارس لاعبا عسكريا مباشرا ضد الألمان، لكنهم كانوا مراقبين يقظين وحكموا على الوضع في علاقته بإمكانات ومخاطر مناطق النفوذ الخاصة بهم. وكان رئيس المفوضية، ريموند لوكونت، قد عمل بين تموز 1905 ونهاية عام 1907 في السفارة الفرنسية في برلين، وكانت لديه آنذاك صلات شخصية وثيقة مع الأمير أويلنبرج، أفضل أصدقاء القيصر. اعتقد لوكونت صيف عام 1915 أن الألمان قادرين على تنفيذ أكثر المشروعات جسارة في فارس، وشكا في برقياته من تأثير المؤامرات والدعاية الألمانية، وأبدى إعجابة بالإصرار الذي يلاحق الألمان به أهدافهم الفارسية. لكن لوكونت عرف أيضا نقاط ضعف الألمان، وشجاراتهم الداخلية، وفهم التناقض الدائم بين مصالحهم والمصالح التركية. كان الأتراك يلاحقون في فارس أهدافا توسعية مكشوفة لم يحرصوا ديبلوماسيا على إخفائها، لذلك فقدت الدعاية الألمانية المعادية لروسيا وبريطانيا مصداقيتها لدى قوى فارس الديموقراطية والقومية[16].

كيف قومت الجهات الألمانية عمل نيدرماير؟. كان الأستاذ فريدريش ساره، القائد الاحتياطي في سلاح الفرسان، أحد أكثر علماء الآثار في عصره أهمية. وكان يعرف المنطقة وأناسها خير معرفة، بعد أن نفذ عمليات تنقيب

16. أوليفر باست: الألمان في فارس أثناء الحرب العالمية الأولى، حسب مصادر ديبلوماسية فرنسية. باريس 1997، ص 76.

واسعة في سماره الإيرانية بين 1911 و 1913. كان الأستاذ واحدا من أكثر ألمان زمنه معرفة بالشرق، وأشرف عام 1910 على معرض الشرق الكبير في ميونيخ، وقوم في 18 تموز عام 1915 بصفته ضابط اتصال ألماني مع فارس نشاط نيدرماير، وقال: «إنه يبدو كمن عمل بنجاح كبير في تلك البلاد، وعزز مصالحنا بقوة، وأضر بمصالح البريطانيين والروس عبر كسب القبائل وتأسيس مراكز للعمليات وللمتعاونين معنا».

## البعثة الثانية

شعر المبعوث الألماني في طهران بالسعادة عندما اختفى نيدرماير منها. كان الأمير رويس منزعجا منذ أسابيع من الملازم الأول البافاري الكثير النشاط ومن عملياته التي لا يرجع فيها إلى أحد، التي أزعجته قدر ما أزعجته تقريبا دسائس البريطانيين والروس. لم يتقيد نيدرماير بتراتب وزارة الخارجية الوظيفي، لذلك رحب الأمير ببعثة ألمانية ثانية إلى أفغانستان ذكرت غريمه أن الهدف الأصلي لرحلته هو كابول. أبلغ المبعوث في 4 تموز 1915 عن مغادرة نيدرماير طهران: «إن وصول فون هانتيج، الذي لم يسمح لأحد بتأخيره، دفع نيدرماير إلى الذهاب نحو أصفهان».

كان سكرتير السفارة فيرنر أوتو فون هانتيج، قائد البعثة الثانية إلى أفغانستان، مثل نيدرماير في التاسعة والعشرين من العمر. ولد هانتيج يوم 22 أيار عام 1886 في برلين لمحام ناجح ووزير دولة لاحق في ساكسن جوتا كوبورج، وانتسب إلى الشريحة الأرستقراطية / البرجوازية القيادية في بروسيا، التي تخطت تطلعاتها السياسية والاجتماعية القيادية والتنظيمية طبقة بافاريا الوسطى. بعد إنهاء خدمته العسكرية في فوج الخيالة الثالث العريق، المرابط في كونيجزبرج، درس ضابط الاحتياط الشاب الحقوق، واجتاز عام 1909 بنجاح امتحان الدولة الاول، وانتسب بعد حصوله على الدكتوراه إلى السلك الديبلوماسي، وحمل، مثل بسمارك، وسام منقذي الحياة، الذي كان

لديه سبب كاف لأن يكون فخورا به. كان هانتيج ظاهرة رشيقة لها شكل فارس متوثب، وكان رجل أفعال، صلبا وعنيدا ومع شيء من التكبر.

وقد عمل أول الأمر ملحقا في بكين، قبل أن ينقل عام 1913 إلى اسطنبول، ويعمل في النهاية سكرتيرا للسفارة في طهران حتى نشوب الحرب. هكذا كان أمرا طبيعيا أن يكلف هذا الديبلوماسي الشاب، الطموح والخبير بالخارج، لأن يجتاز مطلع عام 1915 بصحبة هنديين ثوريين الامبراطورية العثمانية وفارس إلى أفغانستان. رأى فون هانتيج في مهمته الخاصة ما كان نيدرماير قد رآه بدوره في مهمته: فرصة استثنائية وتحديا خارقا. وكان مثل نيدرماير ذكيا، قوي الإرادة ومصمما على النجاح، وتميز بوعي ذاتي خارق ـ وقد قيض له أن ينازع حتى مماته نيدرماير على مجد أنه قاد في أصعب الظروف مجموعة صغيرة من المغامرين الألمان والثوريين الهنود نحو أفغانستان.

بدأ ما قبل تاريخ البعثة الثانية في كانون الثاني عام 1915 في القنصلية الألمانية العامة بجنيف، عندما ظهر هناك بصورة مفاجئة لاجئ سياسي هندي قادم من بعيد كي يعرض قضيته. كان اسم الرجل محمد بركة الله، وقد جاء من سان فرانسيسكو البعيدة إلى جنيف، لإقامة صلات مع الجهات الألمانية، التي طلب عونها من أجل تحرير الهند من السيطرة الأجنبية البريطانية. وزعم أنه صديق نصر الله، شقيق أمير أفغانستان، ورجا أن تساعده ألمانيا في الوصول إلى كابول.

نقل بركة الله إلى برلين، حيث قابل كومار ماهندرا براتاب، الأرستقراطي الهندي المطالب بواحدة من الإمارات الصغيرة، الذي ارتحل منذ عام 1906 عبر العالم من أجل إيجاد دعم دولي للحركة الوطنية الهندية. قال الرجل إنه يعرف غاندي ونهرو وأعلن استعداده للذهاب مع بركة الله إلى كابول، لإطلاق عملية تثوير الهند من هناك. استقبل القيصر فيلهلم الثاني

برتاب قبل رحلته، وكان قد قرر منح أمير أفغانستان وسام الصليب الكبير لأخوية النسر الأحمر مع وشاحه، على أن يسلمه هانتيج إليه[17].

شكل هانتيج بعثة صغيرة، لكنها تتسم بالكفاءة، كان طبيبها الدكتور بيكر خيّالا ممتازا يجيد الفارسية، وسبق له أن عمل طيلة عامين في المشفى الألماني في طهران. أما مترجمها فكان التاجر الشاب فالتر روهر، الذي كان قد عاش سنوات طويلة في الشرق، وأتقن اللهجات الفارسية والتركية كأحد أبنائها، وصار فيما بعد صهر هانتيج. بينما أعلنت نصف دزينة من الجنود الهنود رغبتها في أن تشكل مرافقة عسكرية للبعثة، وكان معظم هؤلاء مقاتلين في أفواج استعمارية بريطانية وقعوا في الأسر الألماني، وعبروا الآن عن استعدادهم لمؤازرة ألمانيا في قتالها ضد سادتهم الاستعماريين الإنجليز.

غادر فون هانتيج وكومار ماهندرا برتاب عاصمة الرايش في 14 نيسان 1915، وسافرا عبر بوخارست وصوفيا إلى اسطنبول، حيث التقيا بركة الله ودكتور بيكر، اللذين كانا قد سبقاهما إلى البوسفور. قابلت الدوائر الحكومية التركية فون هانتيج بالارتياب، ووضعت عقبات بيروقراطية في طريقه، حتى أنه لم يتمكن من العثور إلا بعد عناء شديد على مرافق تركي ملائم هو الملازم أول قاسم بك. تحدث هانتيج مع أنور باشا أيضا، واستقبله السلطان مع ماهندرا، وتمنى للبعثة التوفيق من الله.

ترك هانتيج ومرافقوه اسطنبول مطلع أيار عام 1915. فعبروا مثل نيدرماير جبال طوروس على الخيول، وانحدروا في قوارب قديمة نزولا مع الفرات، إلى أن بلغوا في النهاية بغداد، وذهبوا منها في اتجاه فارس. بلغت المجموعة كرمنشاه في 14 حزيران، حيث ترك هانتيج رفاق رحلته المرضى

17. قدم توماس هوجز عرضا جيدا ومتوازنا عن علاقة فون هانتيج ونيدرماير خلال بعثة افغانستان عام 1915 ـ 1916 في: البعثة الألمانية إلى افغانستان 1915 ـ 1916 (بالإنجليزية). محاضرة في معهد التاريخ الألماني، واشنطن 29 كانون الثاني عام 2002.

في عهدة الدكتور بيكر، وسار نحو طهران ليعد بقية الرحلة إلى أفغانستان.

وكان السفير الألماني في اسطنبول فون فانجنهايم قد تلقى يوم 8 ايار البرقية التالية من الأمير رويس في طهران: «ألتمس ردا برقيا حول ما إذا كانت وجهة النظر، التي أتبناها وكانيس (الملحق العسكري الألماني في طهران) صحيحة، وهي أنه رغم المراعاة التامة لمهمتهما الخاصة، فإن فون هانتيج وبيكر يجب أن يكونا تابعين عسكريا لنيدرماير، من أجل الحفاظ على تماسك بعثة أفغانستان، الذي نجحت في إقامته آخر الأمر. أبلغنا نيدرماير عن الرحلة»[18]. كان السفير فون فانجنهايم يتذكر بامتعاض الشجارات المستمرة والنزاعات الداخلية حول قيادة البعثة لأفغانية، ويعتقد الآن، شأنه في ذلك شأن مفوضية طهران الألمانية، أنه يجب حسم مسألة قيادة المشروع بمجمله، بعد إرسال البعثة الثانية. لذلك اعتبر توصية المفوضية صحيحة وأعلن موافقته على الترتيب المقترح، وأخبر وزارة الخارجية في اليوم نفسه برده على الأمير رويس: «موافق تماما على وضع بعثة هانتينج تحت إمرة نيدرماير عسكريا، مع المحافظة على استقلالية هانتيج السياسية. لإعلام نيدرماير بذلك، وكذلك الملحق العسكري».

رغم هذا القرار، بدأت الخلافات المقبلة بين نيدرماير وهانتيج في مرحلة مبكرة. وقد أبرق نيدرماير يوم 12 حزيران إلى برلين: «كنت قد كلفت في حينه بالإمرة غير المحدودة (تطبيق قوانين الحرب... الخ) على البعثة المنظمة عسكريا الذاهبة إلى فارس وأفغانستان. ألتمس من الأركان العامة بكل طاعة تحديد التنظيم الدقيق لصلاحياتي كقائد بعثة عسكرية، وإبلاغي بقراركم في أقرب وقت». عندما وصل هانتيج بعد ثلاثة أيام إلى طهران وهو مصاب بملاريا شديدة، لم يكن نيدرماير قد تلقى بعد أية تعليمات جديدة تتخطى قرار فون فانجنهايم يوم 8 أيار 1915.

18. طبعت البرقية كوثيقة في نهاية هذا الكتاب.

## متنافسان أثناء المسير

هناك ملاحظات كتبها هانتيج حول لقاء المتنافسين الأول في طهران، تؤكد أنه كان يجهل قرار فون فانجنهايم بوضعه عسكريا تحت سلطة نيدرمايير، أو لم يكن على استعداد لقبوله. كان هانتيج يرى أن تكليفه الديبلوماسي يضفي عليه شرعية سياسية، بينما يفتقر نيدرماير إلى أي تفويض خطي، عدا ما يتلقاه من تعليمات برقية. يقدم عرض هانتيج فكرة عن التوترات، التي نشأت على الفور بين الديبلوماسي البروسي النبيل والضابط البرجوازي البافاري: «عندما ظهرت في طهران، رجاني نيدرماير أن أوكل إليه مهمتي، لأنه الرجل الأفضل دون شك. شعرت أنني لست مؤهلا لتقويم هذا، لكنه كان علي رفض رجائه لأن مهمتي ترتبط باسمي حصرا. وافهمته أنه إذا كان هو مكلفا بكتب الاعتماد، فإنني أعطيت حق منح الأوسمة، وائتمنت على هدايا الأمير وصليب النسر الأحمر الكبير مع وشاحه. عندئذ، رجاني نيدرماير، بعد أن فشل مسعاه، أن أسمح له بالانضمام إلي بعد إنهاء أعماله[19]».

بقي هانتيج أياما قليلة في العاصمة الفارسية، ثم واصل ترحاله نحو أصفهان، بينما بقي نيدرماير أول الأمر في طهران، حيث كان لا يزال مشغولا بربط خيوط شبكته المتنوعة. لكنه سافر يوم 23 حزيران 1915 بصحبة جونتر فوجت إلى أصفهان، التي دخلها يوم 27 حزيران، بعد ستة أيام من وصول هانتيج إليها. كان الألمان يريدون المخاطرة بالمسير انطلاقا من هنا نحو أفغانستان، مرورا بالكبير، صحراء آسيا الوسطى الملحية. ذلك كان يعني بالنسبة إلى نيدرماير عبور هذه الصحراء للمرة الثانية خلال عامين،

19. فيرنر اوتو فون هانتيج: الحاج ميرزا حسين في الحرب العالمية أمام أبواب الهند. مخطوط مطبوع على الآلة الكاتبة، ص 7. راجع الأنباء الإيرانية، العام 20، رقم 3، 1990، ص 91 ـ 117.

وإن كانت المسيرة لن تقوده هذه المرة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، مثلما حدث في تشرين الثاني من عام 1913، بل ستؤدي بالأحرى إلى عبور الصحراء في أكثر الأوقات حرارة وفي طولي يقود من الغرب إلى الشرق، لتفادي الدوريات الحربية الروسية والبريطانية.

كان هانتيج قد غادر، عندما ودع نيدرماير يوم 6 تموز عام 1915 شقيقه فريتز وأعضاء بعثته، الذين بقوا في أصفهان من أجل مواصلة عملهم في فارس. وقد أدرك القافلة في منطقة طيبيس بعد أيام من السير، وتولى قيادتها بالاشتراك مع هانتيج بينما كانت تعبر الصحراء في اتجاه الشرق. انضم عضوا بعثة نيدرماير باشن وفاجنر إلى القافلة في واحة بوشروجه الصغيرة. كتب نيدرماير في مذكراته: «كنت خلال أسفاري السابقة في فارس قد أصبحت عضوا في عصبة سرية، لديها في أكثر أماكن البلاد عزلة أعضاء حافظوا على ولائهم لها، تعارفوا بفضل علامات محددة وتمتعوا غالبا بمستوى تكوين أعلى من المستوى الوسطي». هنا كانت توجد، إذن، نقطة اتصال مع الجماعات السرية الدينية، التي كان قد اهتم بها منذ بدأ دراساته لدى جورج ياكوب في إيرلنجن: «كم كانت دهشتي كبيرة، عندما تعرفت في هذا المكان الصحراوي البعيد، الذي يسمى بوشروجه، على عضو من هذه العصبة بفضل علامات محددة. وكم كانت فرحته عظيمة عندما عرفته بنفسي». لم يفصح نيدرماير على كل حال عن اسم المنظمة السرية الشرقية التي انضم إليها منذ رحلته الفارسية الأولى: «لن يلومني القارئ إذا كنت قد قد عبرت عن نفسي بطريقة سرية فيما يتعلق بأصدقائي. والحقيقة، أنه لدي أسباب مقنعة تجعلني أحجم عن تسليمهم لانتقام أعداء لا زالوا خطيرين ـ رغم مرور سنوات كثيرة منذ ذلك الوقت ـ»[20].

كان فيلهلم فاسموس قد أخبر فون أوبنهايم أن نيدرماير تحول إلى

20. أوسكار ريتر فون نيدرماير: تحت شمس إيران اللاهبة. داخاو 1925، ص 72.

بهائي. «بما أنه صار بهائيا، فإن لديه أصدقاء في جميع المدن ـ حتى في الهند ـ هم قوم نافذون وميسورون. وهو يتحدث الفارسية والروسية ويعرف بصورة خاصة منطقة الحدود مع أفغانستان». لم يساور هانتيج بدوره شك في أن نيدرماير كان بهائيا. وهو يتذكر حتى بعد أن تقدم به العمر سلوك نيدرماير الغريب خلال مسيرة الصحراء الخطيرة، التي تستهلك طاقات الإنسان: «قبل اختراق خطوط الأعداء مباشرة وبينما هو في حال خطير من الإنهاك، طلب نيدرماير من خادمه ،«أخيه» في عصبة البهائيين السرية تزويده بتشادور، برداء نسائي، لأنه كان يضع في حسبانه الانفصال عن القافلة وحمل رسالتنا إلى كابول بمفرده. هذا التشادور تركه لي بطلب مني»[21]. بقي تشادور نيدرماير إلى ما قبل الهجوم بالقنابل الذي وقع عام 1943 بدعة لشد ما أثارت فضول زوار منزل هانتيج البرليني وأفراد أسرته.

بلغ نيدرماير وهانتيج ورفاقهما هدفهم بعد سبعة أسابيع من مغادرة أصفهان، وعندما اجتازوا الحدود الإيرانية/الأفغانية ليل 20/ 21 آب من عام 1915، كانت الصحراء الإيرانية، والحرارة المهلكة، والدوريات المعادية، قد غدت جزءا من الماضي. وقد كتب نيدرماير عند بئر كيلند تقريرا مشفرا حول العملية الناجحة، لم يتمكن الأمير هوهونلوه، سفير ألمانيا الجديد في اسطنبول، من إيصاله إلى مستشار الرايش بيتمان / هولفيج إلا يوم 10 تشرين الثاني 1915: «في التقرير المرفق، المكتوب بالشيفرة السرية المتفق عليها، يصف الملازم أول نيدرماير بطريقة محسوسة الأخطار والمشقات التي كان على البعثة مواجهتها في طريقها من طيبيس، قبل أن تبلغ هدفها».

كان المسير عبر الصحراء الحارقة مشقة مخيفة بالنسبة لأعضاء البعثة جميعهم، الذين لم يكن معهم غير المال الضروري، وتزودوا بالأمتعة والماء، بعد أن شكل نيدرماير «قافلة طيارة» من مائة وخمسين حيوان حمل

21. هانتيج: مرجع سابق، ص11.

في طيبيس، ليكون التقدم نحو الشرق سريعا قدر الإمكان في حرارة الصيف. وكان لا بد من تمويه طريق المسير، لأن الروس والبريطانيين كانوا يحاولون اصطياد البعثة، فتلقى الدكتور بيكر تكليفا بتنفيذ حركة تمويهية نحو الشمال الشرقي وقع خلالها في الأسر، وتم التظاهر بإرسال قافلة جمال في اتجاه بيردشند، على أن تتفرق وهي في الطريق. إن تضليل العدو والمفاجأة والسرعة هي التي قررت نجاح المجموعة الرئيسة.

كانت المسيرات النهارية ممكنة في ساعات الصباح الأولى وحدها، بعد برودة الليل. أما الخيالة الفرس، الذين جندهم نيدرماير كمرافقين للبعثة، فتبين أنهم غير موثوقين وفروا بعد سرقة مؤونتها وعتادها. وقد ألمح البافاري إلى الطريقة التي تعامل بها مع الفارين الذين ألقي القبض عليهم، فقال: «لقد تعاملت بقسوة فائقة مع جميع الخونة». تخلت البعثة عن جمالها في أول نقطة جبلية، واستأنفت سيرها باستخدام البغال وحدها. وسقط عدد كبير من البشر والحيوانات خلال الجولة العنيفة عبر إقليم قاين، حيث مشت القافلة ليلا نهارا دون توقف. بيد أن المقطع الأخير من الرحلة هو الذي سبب الخسائر الأكبر، لأن حيوانات الجر والحمل بقيت ثلاثة أيام كاملة دون علف أو تبن، فوصلت والبشر إلى نهاية قواها.

لم يذكر نيدرماير الشجار مع هانتيج في مدوناته الأولى، التي كتبها بعد اجتياز الحدود الأفغانية، بل أكد، على العكس من ذلك: «أن هانتيج يساندني على خير وجه، ويسود بيننا تفاهم كامل». قطع الإنسان والحيوان مسافة وسطية تبلغ 40 إلى 50 كيلومترا في اليوم، بل إن طول بعض مقاطع المسير بلغ 80 إلى 90 كيلومترا، فإذا ما أخذ المرء بعين الاعتبار الحرارة التي تتراوح بين 40 و50 درجة، ونقص الماء والعلف، والإنهاك الناجم عن التحميل الليلي للقافلة، والخوف الدائم من أن يكتشف الإنجليز أو الروس مكانها، اتضح لماذا كتب فون هانتيج فيما بعد عن نيدرماير: «إذا ما قومنا الإنجاز الفيزيائي حسب أهدافه ونجاحاته العسكرية المباشرة، وجب علينا

بالتأكيد اعتبار نشاط السيد نيدرماير واحدا من أكثر الانشطة التي عرفتها الحرب على امتدادها جدارة بالعرفان»[22]. ما كان نيدرماير ليحاول عبور صحراء الكبير من الغرب إلى الشرق، دون وصول هانتيج إلى طهران والتوجيه الآتي من برلين. ولكن هل كان بوسع هانتيج السيطرة على المسيرة الخطيرة عبر الصحراء دون صحبة نيدرماير، الذي كان يعرف بفضل رحلته الفارسية مناطق آسيا الوسطى الصحراوية كما لا يعرفها أحد غيره؟.

## في أفغانستان

وصلت البعثة الألمانية بعد ظهر يوم 22 آب عام 1915 إلى غرب حيرات، حيث كان بانتظارها وفد أرسله حاكم المدينة لملاقاتها. في اليوم التالي، رأى نيدرماير وهانتيج ورفاقهما من بعيد المدينة الواحة وحقولها الخضراء، في حين برزت مآذنها الفخورة من وراء أسوارها الطينية الداكنة. أعد أعضاء البعثة أنفسهم، وقد أنهكهم تماما الحر والعطش والتعب والمشي، لمقابلتهم الأولى مع ممثلين حكوميين أفغان، بأن نظفوا ثيابهم وتجهيزاتهم. بينما دهش نيدرماير حين أخرج هانتيج من أمتعته بذة الاستعراضات البيضاء، الخاصة بفوج فرسان كونيجزبيرج، والخوذة الجلدية الخاصة بها.

نزل الألمان في قصر صغير يقع على حافة المدينة كضيوف على الحاكم. وقد بدت لهم حديقة المكان الصغيرة وكأنها الفردوس بعد مسيرات الصحراء المضنية، في حين قدم الحاكم لهم فيضا من الوجبات الشرقية والفواكه الغريبة والماء البارد. بالمقابل، فإنهم لم يكونوا على اتصال مع الشعب ولم يسمح لهم بدخول المدينة، ثم تبين أن الإقامة في القصر لم تكن غير اعتقال منزلي مريح. مع ذلك، بدا حاكم حيرات في أعين نيدرماير

22. كتب هانتيج موقفه يوم 5 تشرين الثاني عام 1917 في القسطنطينية، أرشيف الحرب في ميونيخ.

سيدا كهلا محببا وحسن الإرادة ينفذ بولاء أوامر سيده الأمير.

غادرت البعثة في السابع من أيلول عام 1915 باتجاه كابول. كان الطريق يقود نحو الشرق عبر الجبال الجرداء لمنطقة الهضبة الأفغانية الوسطى، حيث كان يعيش الهزارة، المسلمون الشيعة وأخلاف محاربي جنكيز خان المغوليين. كانت وتيرة المشي أبطأ منها خلال عبور الصحراء، لأن الطريق في الممرات الصاعدة كان يستهلك القوى ويسبب الإرهاق، ولأنه كان هناك ممرات جبلية كثيرة يجب اجتيازها. أصيب هانس ياكوب، صبي نيدرماير الذي رافقه منذ بداية الحرب العالمية، بمرض شديد، فتركه وراءه يوم 22 أيلول عام 1915 بعد أن زوده بمواد غذائية ومرافقين. بعد أسبوعين مات ياكوب. هل أصابته أمراض المرتفعات أم قتله التهاب الرئتين؟. أصيب نيدرماير بحزن شديد على مرافقه، ودفنه في وقت لاحق على قمة منحدر جبلي خارج كابول وبنى تكريما له هرما حجريا يذكر في الوقت نفسه بالبعثة الألمانية.

وصل الألمان والهنود إلى العاصمة الأفغانية في 2 تشرين الأول عام 1915. كان منظر المدينة الواقعة على نهر كابول، الرابضة تحت أقدام قلعة باله حصار، أخّاذا. وكانت ظلال الاشجار والجداول الجبلية المتدفقة تخترق الهضبة المسورة بجبال جبارة، التي حمل محيطها القريب طابع اقتصاد الواحة الغني. أنزل الألمان في قصر صغير محاط بأشجار كبيرة يقع خارج المدينة، تدفق الماء فيه عبر أحواض يغطيها الرخام، بينما جثم في أعلى موقع من الحديقة مدفن بابور، فاتح الهند، الذي ذكر الألمان بهدف رحلتهم الأصلي.

عومل الألمان والهنود بكل تكريم كضيوف للأمير، لكنهم خضعوا في الوقت نفسه لحراسة صارمة منعت أعضاء البعثة من مغادرة حتى الحديقة في الأسابيع الثلاثة الأولى. أخيرا، وفي 26 تشرين الأول عام 1915 أحضرت

سيارة الرولز الرايز الخاصة بالأمير نيدرماير وهانتيج إلى قصره الصيفي. كان الحاكم، محب السيارات، مالكها الوحيد في البلاد، وقد أمر بتغطية المسافة بين كابول وقصر باغام الصيفي بالأسفلت، ليتمكن من تحريك رولز رايزه.

دامت المقابلة العامة قرابة ست ساعات. جلس الامير حبيب الله، القصير القامة المتين البنية، على عرشه وقد ارتدى بذلة أوروبية وأحاط به أخوته وأبناؤه ووزراؤه. لقد استمع إلى الضيوف وتحدث قليلا، بينما كان يتأمل الأجانب بعينيه السوداوين الكبيرتين. لكنه رد على كومار ماهندرا برتاب، الذي طلب دعمه لتثوير الهند، بإشارة تنم عن عدم الرغبة. سلم الهندي الأمير رسالة من القيصر الألماني، وسلمه هانتيج رسالة من حكومة ألمانيا. أما نيدرماير، الذي كان يفتقر إلى شرعية خطية، فوجد الوضع مزعجا إلى أبعد حد: «لم أكن أملك شخصيا أي شيء يعرف بشخصي، فكان على الإفادة من الرسالتين!». لقد ساءته الطريقة التي عامل بها السيد الأفغاني الألمان، الذين رأى فيهم تجارا سياسيين جوالين يعرضون أمامه سلعهم: «أوضح الأمير لنا إنه يستطيع قبول الأشياء الملائمة لبلاده وحدها، وأنه سيختار «من بضاعتنا» ما يناسبه، لذلك يحسن بنا أن لا نعرض عليه أصلا ما لن يحظى بقبوله».

أنعشت المقابلة نيدرماير، الذي وجد نفسه في يدي سياسي حسب وضعه بدقة، فلم ينجح الألمان في حجب أي نقطة ضعف لديهم عنه. أساء نيدرماير الظن قبل كل شيء بمترجم الأمير، الذي تحدث بطلاقة إنجليزية رائعة. بيد أن سلوك حبيب الله ما كان يجب أن يباغت الألمان، فأفغانستان لا تدين باستقلالها لشجاعة شعبها الأسطورية وحدها، بل كذلك للتنافس بين القوتين الآسيويتين العظميين روسيا وبريطانيا العظمى، اللتين عرف كيف يلعب بهما الواحدة ضد الأخرى، لإدراكه أن المناورة المدروسة والاستخدام الذكي لتناقضات المصالح الامبريالية من شأنهما وحدهما ضمان الوجود السياسي لدولته الضعيفة. ربما كان مظهر الأمير لا يترك انطباعا مؤثرا بصورة

خاصة، إلا أن الرجل كان يعرف بدقة مصالحه وماذا يريد. وقد حكم بلاده بدهاء وحيوية، ورأى في الأدب الديبلوماسي وفن المناورة البارع وسيلتي حفاظ على سلطته، لهما ما للعقاب القاسي والتنفيذ المخيف من فاعلية.

بعد المقابلة الأولى، جرت سلسلة كاملة من أحاديث متفرقة مع شخصيات قيادية أفغانية، لم تحقق بدورها شيئا على الصعيد السياسي. ثم ألمح نصر الله خان، شقيق الأمير، في 23 كانون الأول عام 1915 لأول مرة إلى استعداد حبيب الله عقد معاهدة مع الرايش الألماني، بدأت عندئذ المفاوضات من جديد في الخامس والعشرين من الشهر ذاته، ووقع الأمير مسودة المعاهدة يوم 24 كانون الثاني من عام 1916، فمهرها فون هانتيج ونيدرماير بتوقيعيهما نيابة عن الرايش، على أن يحمل رسول الوثيقة إلى فارس وتجد طريقها من هناك إلى ألمانيا.

خصت بنود المعاهدة العشرة الجانب الأفغاني بجميع ما تضمنته من منافع سياسية، فقد اعترفت ألمانيا وحلفاؤها باستقلال أفغانستان السياسي، والتزموا بإمدادها بكميات وافرة من السلاح وبدفع عشرة ملايين جنيه استرليني لها، وأعلنت استعدادها إرسال ضباط وتقنيين إليها ليكونوا تحت تصرفها كمستشارين في حال دخلت الحرب فعلا. كانت المعاهدة تعني تقوية الأمير الذكي سياسيا وديبلوماسيا في مواجهة روسيا والامبراطورية البريطانية، دون أن تلزمه بأي شيء تجاه قوى المحور.

غير أن توقيع المعاهدة مع بلاد هندكوش المهمة جيواستراتيجيا كان يعني نجاحا سياسيا بالنسبة إلى الرايش الألماني، لم يرجع على كل حال إلى مهارة هانتيج التفاوضية وتصميم نيدرماير، بل إلى الوضع الحربي، الذي اعتبره الأمير أمرا حاسما واستأثر باهتمامه. كان وضع قوى المحور قد استقر في أوروبا مع مستهل عام 1916، وارتسمت على الدردنيل علامات الكارثة التي حلت بالعمليات البريطانية، وجعلت وحدات الكومنولث تخلي يوم 9

كانون الثاني مواقعها الأخيرة في شبه جزيرة جاليبولي. بينما انتهت خطة ونستون تشرشل حول إنزال هزيمة حاسمة بقوى المحور في نقطتها الأضعف، أي في مضائق المتوسط جنوب القسطنطينية، إلى هزيمة وخسائر فادحة على يد المدافعين الأتراك الشجعان. وقد أقر نيدرماير بأن تطور الحرب العام هو الذي أقنع الأمير بالتفاوض: «أؤكد أن وضع الحرب العام آنذاك ـ احتلال صربيا، جاليبولي . . . الخ ـ أفاد كثيرا عملنا، رغم جهود إنجلترا المعاكسة الهائلة»، ومحاولة عملاء إنجليز في كابول قطع الطريق على المقاصد الألمانية: «لم يترك الإنجليز وسيلة إلا وجربوها للتأثير في الأمير، من الهدايا إلى الوعود إلى المطالب. بل إنهم قدموا ذات مرة عشرة ملايين روبيه، في حين كانوا يقومون بتحركات عسكرية واسعة على الحدود، ويحشدون 180000 رجل حسب أنباء هندية».

قلل نيدرماير في نظرة ألقاها على الماضي من أهمية معاهدة الصداقة الألمانية / الأفغانية: «كنا قانعين تماما من عدم أهمية الحدث، ولكن كي نتقدم بعض الشيء ويسمح لنا بالعمل، تظاهرنا أننا سعداء وأرسلنا المعاهدة إلى برلين». غير ان نيدرماير نفسه كان مطمئنا بعد توقيع الاتفاقية مباشرة، بل إنه كان للحظة مغتبطا. وقد كتب موقفه منه في صورة ملحق أضيف إلى نصه، وقع بعد ذلك في يد البريطانيين.

ألقى البافاري بعد ذلك، مطلع عام 1916، نظرة جد متفائلة إلى الوضع: كان الجيش النظامي الأفغاني يضم ثمانين ألف رجل، منهم في تقديره إثنان وأربعون ألفا على أتم استعداد للقتال. وفي حالة الضرورة، كان باستطاعة الافغان تعبئة أربعمائة إلى خمسمائة ألف رجل. في حين كان مزاج البلاد العام جيدا، وكان كثير من أفغان كابول يرجون تحقيق انتصار عسكري على الإنجليز. أكد نيدرماير وجود تجمعات قوات معادية قوية على الجانب الهندي من الحدود ضمت كنديين أيضا، بينما كانت العصبية كبيرة وواضحة على الجانب البريطاني. طلب نيدرماير إرسال طائرات وعشرة آلاف رجل من

القوات الألمانية أو التركية، واعتقد أنه يمكن بعد وصولهم بدء العمليات العسكرية ضد الهند، وقال إن شهر نيسان هو أفضل وقت للعمليات، التي ستفصلها عن توقيع الاتفاق أشهر ثلاثة يجب خلالها تسريع تعبئة أفغانستان، وبناء تحصينات ميدانية على الحدود، وتحرير الأسرى في تركستان، وممارسة أعمال تخريبية ضد مرافق الهند الصناعية، وتعزيز التحريض. وقد ألح يوم 25 كانون الثاني عام 1916 مرة أخرى على ضرورة القيام بأعمال قوية، ولأن وقت الهجوم على الهند بدا له جد ملائم، فقد أراد اتخاذ كافة الاستعدادات في أفغانستان وألحق في طلب التعزيزات.

وكان الأعضاء الهنود في الوفد الألماني قد قاموا بخطوة مثيرة في الأول من كانون الأول عام 1915، فأعلن ماهندرا كومار برتاب من كابول قيام حكومة هندية موقتة هي القيادة السياسية لحركة الاستقلال والتحرير، وتولى هو منصب الرئاسة ريثما ينتخب مؤتمر وطني هندي رئيسا، وعين حبيب الله رئيسا للوزارة ونيدرماير وزيرا للحرب. في هذه الأثناء، وقع شقاق كبير بين هانتيج وبرتاب، الذي طالب هانتيج بتسليمه مالية البعثة من أجل إنفاقها على عمله السياسي. وعندما رفض طلبه، كتب رسالة شكوى إلى مستشار الرايش. يتذكر هانتيج ما حدث على النحو التالي: «انهمك نيدرماير في اللعبة وتولى إرسال كتاب يشكوني برتاب فيه إلى مستشار الرايش (تاريخه 11 كانون الأول 1915؟). لم أحاول من جانبي وقف الرسالة، لأنها تضيء أكثر من أي شيء آخر الوضع العام وطبيعة كومار. كما أنني لم أضيع كلمة واحدة على الموضوع، سواء في أحاديثي مع نيدرماير أم مع الهندي. إن الجانب المرضي لهذه الحالة، الذي أفصحت الرسالة عنه، جعلني أتجاوزها»[23].

تدل شجارات البعثة الداخلية، وحكومة الهند الموقتة التي شكلها

23. فيرنر اوتو فون هانتيج، الحاج ميرزا، ص 15.

برتاب، وطلبات نيدرماير العسكرية الواسعة على وجود هوة لا تردم بين الرغبات والواقع. ماذا كان بوسع نيدرماير أن يفعل حقا في كابول، بعد إعطاء أعضاء البعثة حرية حركة أكبر في كانون الثاني من عام 1916؟. كان هناك غرب المدينة، حيث يخترق نهر كابول سلسلة جبال الهندكوش، مجموعة مبان لها جاذبية خاصة على نيدرماير، هي منطقة جرف صغيرة اسمها «ماشينشانيم» كان يتم إنتاج بنادق ومدافع وذخائر بأمر من الأمير. كانت المنشآت قديمة، لكن أفغانستان لم تكن تملك أية آلات لإنتاج الأسلحة الحديثة، فكان هذا المرفق الصغير المكان الوحيد القادر بطريقة ما على صنع السلاح بين الامبراطورية العثمانية والهند. وقد اهتم نيدرماير بصيانة وتحسين الآلات، وحسّن كضابط مدفعية أجهزة تصويب المدافع وحدّث صناعة الأسلحة النارية اليدوية، يسانده في ذلك ثلاثة ضباط نمساويين فروا من الأسر الروسي، هم المقدم شراينر والملازم أول إميل ريبيكا والملازم الثاني روهلاند. لقد قدم هؤلاء من تركستان واجتازوا الحدود الأفغانية في آب، ونزلوا منذ كانون الأول في قصر الحديقة المخصص للبعثة الألمانية.

أكب نيدرماير على تحسين تأهيل الضباط الأفغان بالتعاون مع النمساويين، ودربهم على الديناميت والقنابل اليدوية وشاركهم ممارسة القنص. كما أقام محطة برقية بوسائل بسيطة مكنت الألمان من التنصت مطلع عام 1916 على محطات بريطانية عديدة، في حين تكثفت التدريبات، وإجراءات الإعداد العسكري، وأعمال التحصين الميداني قرب ممر خيبر، وأبلغ جواسيس الإنجليز الهند بالأنشطة العسكرية المكثفة، التي أسهمت في إذكاء نيران التوتر بين البريطانيين وبين الأمير والمجموعات المعادية لهم في كابول.

استغل نيدرماير وهانتيج الشقاقات العائلية في دائرة الأمير الأسرية المباشرة. فقد تزوج أميران، أحدهما الملك اللاحق آمان الله، من ابنتي

محمود طرزي، القوة الدافعة للحركة الوطنية الأفغانية وسليل الأسرة البشتونية الثرية، الذي كان عبد الرحمن خان، والد الأمير الحاكم، قد طرده ذات مرة من البلاد، فانتقل عبر الامبراطورية العثمانية إلى سوريا. بعد تولي حبيب الله العرش، رجع الرجل إلى كابول وصار بسرعة القائد الذي أجمعت عليه قوى البلاد التقدمية، التي كانت تناضل من أجل الإصلاح الداخلي واستقلال أفغانستان عن القوى الامبريالية الكبرى. لعب حمو ولدي الأمير وناشر الجريدة الأفغانية الوحيدة دورا مفتاحيا في حلقات كابول السياسية، وكانت له علاقات ودية مع الألمان جعلته نصيرا لهم، دعت جريدته الأمير بعد وقت قصير من وصولهم إلى شن هجوم على الهند: «افترس يا آغا كي لا تُفترس»[24]. أقام نيدرماير علاقات ودية مع شقيق الأمير نصر الله، وقد أفهمه الأفغاني أنه ليس موافقا على سلوك شقيقه الحذر، وأنه كره الإنجليز منذ زار بلدهم عام 1895.

لم تبق أنشطة الألمان خفية بالنسبة إلى الأمير. يتذكر نيدرماير: «أحدث سلوكنا الغريب تأثيرا ثوريا متشعبا، وملأ بالاستياء أحيانا الأمير الخائف على مركزه، الذي لم يكن واثقا إطلاقا من ولاء حاشيته المقربة».

فترت علاقات الأمير بسرعة مع الألمان، لأسباب بيَّنها أنه كان يقيم صلات سرية مع البريطانيين. ثم أعلن في 12 آذار 1916 بطريقة لا تحتمل اللبس أن أفغانستان لن تشارك في الحرب، ما لم يتحقق شرطان: نشوب انتفاضة في الهند، وهجوم قوات ألمانية أو تركية من فارس على بلوشستان، وهما شرطان كانا غير قابلين للتحقيق سياسيا وعسكريا. صحيح أن 16 ألف جندي من الجيش البريطاني كانوا مطوقين ذلك الوقت عند كوت العمارة، لكن الروس احتلوا في اللحظة عينها أرض روم وألحقوا هزيمة نكراء

24. بيرسي سايكس: تاريخ أفغانستان، جزءان، لندن 1940، الجزء الثاني ص 264.

بالأتراك. اقتنع نيدرماير وهانتيج بعدم جدوى مواصلة الإقامة في كابول، لأن من المحال دفع الأمير إلى الحرب دون وصول قوات ألمانية إلى أفغانستان، وفتح طرق اتصال أرضي معها عبر فارس.

أصر نيدرماير على الرحيل، وأخفقت محاولات الأمير لجعل الألمان يبقون. ومع أنه كان يريد إبقاءهم رهائن في بلده حتى نهاية الحرب، فإنه لم يجرؤ على منعهم من الرحيل بالقوة. في لقاء الوداع، أكد حبيب الله بأدب جم تعاطفه مع ألمانيا، وأفصح عن رغبته الديبلوماسية بزيارتها بعد الحرب. حين استقبل نصر الله خان، شقيق الأمير، نيدرماير وهانتيج لمحادثة وداعية منفصلة، أعلن خلافه مع سياسة شقيقه وكرر وجهة نظره التي ترى أن الحرب ضد البريطانيين حتمية بالنسبة إلى أفغانستان، بالاعتماد على قبائل الحدود البشتونية قبل كل شيء.

غادر البعثة كابول بعد التزود بالمؤن. ووضع نيدرماير قبل رحيله أزهارا على قبر هانس ياكوب، بينما بقي في العاصمة الأفغانية كومار ماهندرا برتاب، بركات الله وقرابة مائة نمساوي كانوا قد فروا من الاسر الروسي إليها.

لم يبلغ نيدرماير وهانتيج الاهداف الألمانية الرئيسة، وهي دخول أفغانستان الحرب إلى جانب قوى المحور، وهجوم الأمير على شمال غرب الهند وتثوير شبه القارة الهندية[25]. ومع ذلك، كان باستطاعتهما الإشارة إلى نتائج تستحق الملاحظة: قطع صلة أفغانستان الطيبة مع الهند البريطانية، وإرشاد البلاد إلى طريق يمكن أن يخرجها من العزلة السياسية والتبعية. بقي الاتفاق الألماني / الأفغاني ملزما بالنسبة إلى الرايش الألماني، لذا ضمّن

25. هذا ما يقوله التقويم الصحيح والتلخيصي الذي أجراه لودفيج اداميك: شؤون افغانستان الخارجية في مطلع القرن العشرين. العلاقات مع الاتحاد السوفياتي، ألمانيا، بريطانيا. توكسون 1974، ص 41.

الرايش وروسيا السوفياتية اتفاقية بريست ليتوفسك نصا حرفيا يكفل استقلال أفغانستان.

كمن عائد إقامة نيدرماير وهانتيج الأفغانية في نتائجه الطويلة الأمد، وليس في ما حققه من توقعات راهنة. وعلى سبيل المثال، فإن التوترات التي اججها الرجلان داخل نخبة البلاد القيادية الصغيرة ما لبثت أن انفجرت بقوة بعد 21 شهرا من رحيلهما، بينما كسب نصر الله، شقيق الأمير، وولده آمان الله عددا متزايدا من الأنصار في هذه الفترة، ودعوا مع محمود طرزي للحرب ضد إنجلترا.

قتل الأمير حبيب الله في شباط عام 1919 خلال رحلة صيد إلى جلال آباد، فأعلن نصر الله أميرا في اليوم التالي. طالب آمان الله من جانبه بعرش والده المقتول وتمكن من فرض إرادته على عمه. عندما عين الأمير الجديد حميه صديق الألمان محمود طرزي وزير للخارجية، كانت خطوته إعلان حرب على البريطانيين. في 3 أيار عام 1919، بعد عامين من رحيل نيدرماير وهانتيج من كابول، وبينما كان المنتصرون على ألمانيا يتشاورون في فرساي، شهد ممر خيبر أولى العمليات القتالية، التي بادرت إلى شنها قبائل البشتون الحدودية، وأعلن أمان الله «الجهاد» وتوغل الأفغان قرابة مائة كيلومتر خارج حدودهم. وحين استخدم البريطانيون الآليات المصفحة والمدفعية، وقصفوا كابول وجلال آباد من الجو، سارع الأفغان إلى الفرار وعرض أمان الله التفاوض، فتم في آب من عام 1919 توقيع معاهدة مؤقتة في روالبندي اعترف البريطانيون فيها باستقلال أفغانستان، لكنهم أوقفوا في الوقت نفسه الدفعات النقدية الدورية، التي كانوا يؤدونها إلى الامير في كابول.

أكد فون هانتيج، وهو يلقي نظرة استحضارية على رحلته إلى كابول، بشيء من الافتخار: «حققت البعثة الديبلوماسيية الألمانية نتيجة غير متوقعة

هي زعزعة أفظع نظام استبدادي في آسيا، وأيقظت شعورا لم يكن معروفا أو واعيا بالعزة الوطنية في البلاد، حملته شبيبة متعطشة إلى التعليم، وجعلت الأقليات عاملا يحسب حسابه في الدولة، وأبعدت ما لا يقل عن مائة ألف رجل في الهند وحدها عن ميادين القتال الأخرى. لقد مارسنا سياسة نزيهة بجميع المعايير، لذا لم نخيب آمال أحد[26].

## إياب خطير

حين غادر نيدرماير وهانتيج كابول في الحادي والعشرين من أيار 1916، كان بانتظارهما ورفاقهما رحلة طويلة وخطيرة على ظهور الخيل. وكان نيدرماير قد وضع خطة لتضليل البريطانيين والروس، وللإفلات من دورياتهما على طريق العودة، تقوم على تقسيم البعثة، بحيث يتقدم باشن، الذي كان قد بقي في حيرات، دون إبطاء عبر الحدود نحو فارس ومنها إلى بغداد، على أن يحل فاجنر محله في وقت لاحق ويتولى إدارة مركز الاتصالات مع غرب أفغانستان، ويسير فوجت عبر غزنه وقندهار نحو الجنوب الغربي، لينتظر هناك إشارة العودة من نيدرماير.

أما القسم الرئيس من البعثة، برئاسة فون نيدرماير وهانتيج، فقد ذهب أول الأمر من كابول إلى الشمال، فاجتاز الهندكوش عبر ممرات جبلية مرتفعة، ليعود بعدئذ من شمال أفغانستان إلى الوطن على طرق مختلفة. بينما قرر هانتيج وروهر بلوغ الصين عبر صحراء بامير، على أن يصلا من

26. أرسل آداميك مخطوط دراسته التأصيلية «شؤون أفغانستان الخارجية» قبل طباعته إلى هانتيج. هذا الاستشهاد هو ملاحظات هانتيج رقم 52 في الصفحة 60 من المخطوط. في رسالة إلى آداميك يوم 1 تشرين الأول عام 1968 أضاف هانتيج أن أنشطته السياسية كانت تستهدف «تطوير الاستقلال الافغاني في جميع الاتجاهات، وشد ازر القوى الوطنية الليبرالية في مواجهة السلوك الاستبدادي للأمير». أشكر الأستاذ آداميك، الذي أتاح لي إلقاء نظرة على مراسلاته مع هانتيج وزودني بنسخ من الكتب والرسائل المتبادلة بينهما.

هناك إلى أوروبا عبر الأطلسي والولايات المتحدة الاميركية. وخطط نيدرماير لاجتياز تركستان الروسية انطلاقا من شمال أفغانستان، ليتفادى بهذه الطريقة المواقع الروسية / البريطانية على امتداد الحدود الفارسية / الأفغانية، على ان تكون مشهد، التي يعرفها خير معرفة، أول أهدافه في فارس.

حقق مخطط نيدرماير نجاحا جزئيا وحسب. فقد نجح باشن في عبور الحدود دون متاعب، لكن فرسا أسروه وسلموه إلى الروس في تموز عام 1916. تلقى فوجت رسالة نيدرماير، التي دعته للذهاب إلى فارس، لكن البريطانيين ألقوا القبض عليه نهاية شهر آب، وأعدموا مرافقيه الهنود رميا بالرصاص، أما هو فعومل بقسوة ووضع في القيود. شعر اعضاء البعثة الألمان، الذين وقعوا بين أيدي البريطانيين، أن هؤلاء يعاملونهم بطريقة مذلة بالمقارنة مع معاملة من وقعوا منهم في اسر الروس. بقي فون هانتيج وروهر بمنأى عن هذا المصير، فقد نفذا خطتهما الجسورة وعادا إلى ألمانيا عام 1917، كما كان مقررا، بعد عبور الصين والسفر من شنجهاي إلى أميركا.

بعد وداع هانتيج وروهر، سار نيدرماير وفاجنر أول الأمر نحو مزار الشريف، التي عاملهما حاكمها بأدب ولياقة. زار نيدرماير ضريح علي، صهر النبي، الذي يقول التراث أنه وجد مستقره الأخير في المدينة. ثم واصل الألمانيان رحلتهما نحو الغرب، إلى بلخ، العاصمة القديمة إغريقية الهوى، التي دمرها المغول في العصر الوسيط، حتى لم يبق شيء من مدينتها القديمة جدا غير خرائب واسعة. سار نيدرماير بحذاء الأسوار، وزار بقايا المباني المسكونة، ورسم مخططا للأطلال.

كان قد مر شهر على خروج القافلة من كابول، عندما انفصل نيدرماير يوم 21 حزيران عام 1916 عن مرافقه. الآن، كان على فاجنر الذهاب إلى حيرات مع أمتعة البعثة، كي يودعه هناك ويحافظ كرجل ارتباط على الصلات مع كابول. كان نيدرماير قد أعد نفسه جيدا لعبور تركستان المفعم

بالخطورة، وللرحلة التالية عبر شمال فارس المراقب روسيا، فكانت له الآن لحية طويلة سوداء، وكان يرتدي ثيابا محلية، وقد أعد نفسه للتنكر وللعب دور فارسي فقير خلال الأسابيع التالية، التي ذهب فيها، بعد وداع فاجنر، تحت قيادة بعض التركمان إلى وحشة صحراء قرقوم.

تحرك البافاري بحذر في السهب الذي تراقبه دوريات الحدود الروسية، التي كان قد اقترب منها أثناء رحلته البحثية الاولى. كان يتقدم خلال الليل ساعة فساعة نحو الغرب وهو يمتطي سرجا تركمانيا قاسيا ومدببا، ويحاول في النهار الاختباء في الصحراء، قبل أن تستمر الرحلة من جديد ليلا. وكان يجد في بعض الثقوب ماء مالحا وطينيا. أخيرا، وصل منهكا إلى الحدود الفارسية قرب سرخس، ثم قصد مشهد، التي وجد في بازارها أصدقاء ومساعدين، إلا انه كان خلال الاسابيع التالية عرضة لخطر الوشاية به من أجل المال.

وصل نيدرماير نهاية تموز 1916 إلى طهران. كان الوضع قد تغير هنا بصورة محسوسة إبان الأشهر الإثني عشرة التي مرت على رحيله منها، فقد غادرت المفوضية الألمانية المدينة نهاية عام 1915، وجند عملاء الإنجليز والروس عددا كبيرا من المخبرين الفرس، لذلك لم يجد نيدرماير فيها دعما يذكر. ومع أنه كان مصابا بالحمى، فقد اضطر لتغيير مكان سكنه مرات عديدة. في هذا الوضع العصيب، كتب يوم 31 تموز 1916 تقريرا من عدة صفحات لخص خبراته في أفغانستان، لاعتقاده أن آخرين سيفيدون من ملاحظاته إذا ما أصابه مكروه. لكن هذا التقرير لم يسلم إلا بعد الحرب العالمية إلى سفارة ألمانيا في طهران، التي أرسلته في نهاية العشرينات إلى وزارة الخارجية في برلين، حيث بقي طيلة عقود في الأرشيف دون أن يقرأه أحد[27].

27. يوجد ما كتبه نيدرماير بخط يده تحت عنوان «تقرير عابر» في الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية.

علم نيدرماير في طهران والخيبة تملأ نفسه أن عددا قليلا وحسب من التقارير وصل بالفعل إلى الجهات الألمانية التي أرسل إليها، لذلك لخص مرة ثانية تقويمه العسكري للوضع: «أفغانستان مستعدة للقتال إن وصل الدعم من ألمانيا. ولديها 70000 جندي مدرب وسلك ضباط ينقصه التأهيل. فرص الهجوم على الهند ملائمة». لكن المستلزمات السياسية للهجوم غير متوفرة: «الأمير ميال للإنجليز وعاجز عن اتخاذ قرارات، والعنف وحده يستطيع أن يحدث التحول هنا». اعتقد نيدرماير بضرورة إزاحة الأمير بالقوة، كي ينجح العمل العسكري، : «يكفي من خمسة إلى عشرة آلاف من القوات الألمانية أو التركية الجيدة التدريب، على أن تتجه قوتها الرئيسة ضد قندهار، وتتم حماية أجنحتها من روسيا (توربات، حرات... الخ).

ارتكب الألمان من وجهة نظر نيدرماير أخطاء فادحة في الحقبة الأولى من الحرب، كاستهانتهم بأهمية فارس بالنسبة إلى العمل ضد الهند البريطانية. واتجه نقده في النهاية ضد ماكس فون أوبنهايم، الذي لم يحلل مخططه لتثوير الهند وضع فارس السياسي بصورة كافية، ولم يحسبه بصورة صائبة: «لو كان أحد ما في ألمانيا أو تركيا يدرك الأثر واسع النطاق لأحداث فارس، لتمت معالجة المسألة الفارسية بطريقة مختلفة منذ البداية. إن من يملك فارس يملك أيضا أفغانستان وطريق الهند. ولا يحق لإنسان الاعتقاد بأن أفغانستان معزولة ستزج بنفسها في حرب لا أفق لها تعاطفا مع ألمانيا أو تركيا. قارن شروحي عام 1914/ 1915».

كتب نيدرماير عن علاقته مع هانتيج: «أردت ترك الأولوية لهانتيج «كمبعوث» في القضايا السياسية الصرف والأنشطة الرسمية العلنية، لكنني شاركت في جميع المفاوضات السياسية، مع أنني اعتبرت في القطاع العسكري / السياسي والعسكري مجالي الخاص. ـ يجب أن أذكر هنا أن تنفيذ توافقاتنا لم يكن ممكنا دوما لأسباب كثيرة خلال إقامتنا في كابول، وقد تقيدنا عموما بهذا الواقع». لكن نيدرماير يلمح أيضا إلى نزاعات:

«عندما كنا نواجه مصاعب كبيرة في بعض الاحيان، كنا نتضامن فون هانتيج كما يتضامن ألمان تجاه مختلف أنواع الدسائس. لكن عملنا ونتائجه السياسيه تأثرا في جميع الأحوال بطريقة ما بتباياناتنا الشخصية، ولو كانت هناك توجيهات دقيقة من برلين لكنا تفادينا منغصات كثيرة، ولوفرنا على أنفسنا الكثير من العمل غير الضروري. ثم يضيف: «يمكن قول الكثير حول هذه النقطة، ومن لديه اهتمام بذلك، فليعد من جديد إلى الوطن وليسأل من مروا معنا بأوقات كابول العصيبة».

عاد نيدرماير في وقت لاحق إلى التوجيهات الغامضة، المسؤولة في رأيه عن التوترات داخل البعثة الألمانية: «ارتكبت السلطات في برلين خطأ كبيرا، عندما أرسلت بعدي ألمانيا آخرا كلفته بمهام شبيهة بمهامي دون أن تقوم بفصل مجالي عملنا بصورة تفصيلية». لم تتعلم برلين من الأخطاء التي تم ارتكابها عند تكوين البعثة الأولى: «إذا كان قد تم ذات مرة ارتكاب خطأ إرسال بعثة إلى أفغانستان دون قيادة، مع أنها تتكون من مجموعة عناصر مختلفة كل الاختلاف وذات حقوق متساوية، وإذا كانت برلين قد رأت النتائج الوخيمة لهذه الطريقة في العمل ـ كم من صراع وجب خوضه لتطهير البعثة وتوحيدها تحت قيادة واحدة! فإنه لا يحق لأحد أن يرتكب مرة ثانية غلطة مشابهة!».

ثم يتحدث نيدرماير عن توجيه فون فانجنهايم بتاريخ 8 أيار 1915: «قبل وصل فون هانتيج إلى فارس طلب الامير رويس بناء على رغبتي تنظيم علاقة القادم الجديد بي، فجاء رد غير كاف هو: على هانتيج الانضواء تحت إمرتي، على أن لا يحول ذلك دون تنفيذ مهمته الخاصة. وقد أوضح هانتيج لي أن لديه توكيلا بالتفاوض مع الحكومة الأفغانية في كل ما يتعلق بعقد معاهدات، وأنه سيعمل في كابول بصفته مبعوثا موقتا. من جهة أخرى، كانت المهام المعطاة لي أعم من ذلك بكثير، لكنني منحت نفسي حرية العمل الضرورية كقائد بعثة عسكرية / سياسية». وعندما وصف في 12

تشرين الثاني عام 1916 علاقته مع هانتيج في مذكرة بعث بها إلى المستشار بيتمان / هولفيج من كرمنشاه، رسم من جديد صورة مترابطة: «لقد حافظنا حتى النهاية على علاقة رفاقية تتسم بالولاء، رغم جميع مكاره الحية السياسية والاجتماعية».

بعد أسابيع ثلاثة من وصوله إلى طهران، شعر نيدرماير أنه في وضع جسدي وروحي يمكنه من الذهاب إلى حمادان. كان الأتراك قد احتلوا المدينة المهمة في غرب فارس، وكان تغير الوضع العسكري خلال صيف 1916 ينعكس في مزاج طهران المعادي لأنجلترا، بعد أن وقع 12000 جندي إنجليزي وهندي يوم 29 نيسان 1916 في أسر الأتراك قرب كوت العمارة، فكان ذلك الهزيمة الكبيرة الثانية للإنجليز في الشرق، التي فصلتها أشهر قليلة فقط عن إخلائهم جاليبولي. صحيح أن موت المارشال كولمار فون دير جلوتز باشا ألقى بظلاله على انتصار الأتراك، إلا أن هؤلاء انتقلوا الى الهجوم على القوات الروسية المرابطة غرب فارس، فنظرت النخبة القيادية الفارسية في طهران إلى التقدم التركي بمشاعر مختلطة، وتساءلت إن كانوا قد أتوا محررين أو محتلين.

احتل الأتراك كرمنشاه مطلع تموز من عام 1916، وبعد فترة قصيرة أخذوا حمادان، التي لا تبعد غير أيام قليلة عن طهران. وقد شكل السياسي الفارسي نظام السلطنة حكومة مؤقتة في كرمنشاه تحت إشراف تركي وألماني، وعين حكاما وبدأ يكوّن جيشا فارسيا. كان على منطقة غرب فارس أن تصير نموذجا يبين المنافع السياسية والاقتصادية التي يمكن أن تترتب على تعاون معارضة فارس الوطنية والديموقراطية مع قوى المحور. تولى الألمان تمويل الإدارة المدنية والعسكرية، وعين مستشار السفارة رودولف نادولني قائما بالأعمال لدى حكومة نظام السلطنة.

وصل رجل غريب يوم 5 أيلول 1916 إلى مندوبية ألمانيا في كرمنشاه.

وقد تذكر نادولني بعد عقود هذه المقابلة[28]: «ظهر ذات يوم رجل يلبس ثيابا فارسية وقد صبغ لحيته وأظافر أصابعه باللون الأحمر، هو المقدم نيدرماير العائد من أفغانستان، الذي تعرض لهجوم في الطريق وفقد كل ما كان بحوزته». كانت مجموعة نيدرماير قد تعرضت على الطريق بين العاصمة الفارسية والجبهة الروسية / التركية لهجوم شنه عليها قطاع الطرق، الذين أساؤوا معاملة أعضائها ونهبوهم. وقد تلقى نيدرماير ضربة على رأسه بكعب بندقية خلال الهجوم.

بوصوله إلى كرمنشاه، لخص نيدرماير يوم 1 تشرين الثاني عام 1916 مشاهداته خلال رحلة العودة، وكتب تقريراً قصيرا حول دراسات علمية كان قد أجراها في شمال أفغانستان: «ملأت وقتي باستقصاءات حول الموقع الإسلامي القديم المقدس مزار الشريف والمستقر الإغريقي باكترا!. ونجحت في إحضار مجموعة جميلة من الاحجار القديمة والنقود، لأن الأمير كان قد أعطانا موافقة كريمة على التصوير والجمع في البلاد بأسرها. هذه المجموعات توجد حاليا في حيرات، وهي برسم متاحف برلين وميونيخ، أما توزيعها الحر فيمكن القيام به بعد وفاتي، على أن يكون القرار حول ذلك للسيد الأستاذ ساره ولليمان وكذلك لكلتا الأكاديميتين. «كما يجب توزيع بقية اللقى والصور على مؤسسات بحثية أخرى، «إعطاء المجموعة الجيولوجية إلى جامعة إيرلنجن، ومن الضروري أن يقرر الأستاذ دريجالسكي ووالدي مصير بقية الصور، التي التقطتها ورفاقي وغطت جميع أطلال وأوابد أفغانستان باستثناء باميان». أخيرا، أشار نيدرماير إلى التقرير الذي تركه في طهران: خلفت ورائي ملخصا قصيرا (وأرقام للتراسل مع نائب السلطنة) في طهران. وأنهى بالتأكيد على أنه «وصل إلى كرمنشاه وليس معه قرش واحد.

28. رودولف نادولني: مهمتي. ذكريات سفير للرايش الألماني. كولونيا 1985، ص 96.

كرمنشاه، 1 تشرين الأول 1916. نيدرماير: مقدم وقائد بعثة أفغانستان»[29].

وكان قد أرسل يوم 16 أيلول 1916 تقريرا قصيرا من كرمنشاه وضع أمام مستشار الرايش بتمان / هولفيج. يقول التقرير إن التعاون السياسي المؤثر مع القيادة الأفغانية الراهنة مستحيل، لأن «الأمير ليس غير مرابي وصديق للبريطانيين». رغم هذا، فإن التعاون مع أفغانستان لا يزال ممكنا: «ذهب فاجنر مع أمتعة البعثة وتجهيزاتها الثمينة كلها إلى حيرات، مكلفا بالبقاء هناك إن أمكن حتى عقد معاهدة السلام». كما سيعيد رسول نص معاهدة الصداقة، الذي تم توقيعه في برلين، إلى أفغانستان، بعد وضعه على ميكروفيلم وإخفائه في غليون.

استخدم نادولني نيدرماير كمترجم للمفوضية ورجل ارتباط مع ساسة الفرس. لكن التوترات ما لبثت أن ظهرت بين الرجلين، فقد دعا المبعوث إلى عمل ألماني مستقل عن تركيا، هدفه دعم قوى فارس الوطنية والديموقراطية. بالمقابل، تحدث نيدرماير عن «الفرس الخونة»، بناء على تجاربه المحزنة في مشهد وطهران، ولانه لم يتخل كذلك عن فكرة العودة إلى أفغانستان. وقد كتب نادولني يوم 16 كانون الثاني عام 1917 من كرمنشاه يقول: «سافر الملازم الأول نيدرماير، الذي انهارت أعصابه بصورة تامة وصار عدائيا تجاه الجميع، للاستجمام في بغداد. وقد نصحت الجنرال أن يرسله إلى ألمانيا، حيث يجب أن يمارس لفترة طويلة عملا آخرا، ويخرج أول الأمر من قضية أفغانستان». لقد كان جليا أن نيدرماير بلغ مطلع عام 1917 حالة من الانهيار النفسي والجسدي الكامل.

29. أرسل نادولني تقرير نيدرماير الموضوع بتاريخ 1 تشرين الاول 1916 يوم 12 تشرين الثاني من كرمنشاه إلى برلين. الأرشيف الوطني، القسم 137/ 141.

## يلديريم 1917

كان الوضع العسكري قد تغير بصورة ملموسة في الشرق، حين رحل نيدرماير من كرمنشاه يوم 15 كانون الثاني عام 1917. شعر الأتراك، بعد نجاحهم في الدردنيل وكوت العمارة، وتقدمهم غرب فارس، أنهم يتعرضون لضغط لا يزال يتزايد، فالقوات الروسية توغلت في أرمينيا، وكسب البريطانيون مزيدا من الأرض في العراق، وثار عرب الحجاز في حزيران عام 1916 بتحريض من الإنجليز، وبدا مطلع عام 1917 خطر وقوع هجوم على فلسطين من مصر يتلازم مع الانتفاضة العربية، بينما تعاني القوات التركية نقصا في الطعام والثياب والأسلحة والذخائر، ويجب على الرايش الألماني زيادة الدعم المالي والمادي الذي يقدمه إلى حليفه، لأن الاستنزاف التدريجي لقوة تركيا القتالية كان أمرا لا يمكن تجاهله.

في أيار من عام 1916، حددت بريطانيا وفرنسا في اتفاقية سايكس/ بيكو أهداف حربهما في الشرق. كان على البريطانيين إخراج الأتراك من شبه جزيرة العرب والهلال الخصيب، كي تنجح مخططاتهم. لذلك اتجه هجومهم الأول من مصر عبر سيناء وفلسطين إلى دمشق، بينما اتجه هجومهم الثاني نحو بغداد، وحرض عملاؤهم عرب هاتين المنطقتين ضد الأتراك. وقرروا، بعد عامين من بدء الحرب الاقتداء بالألمان وانتهاج استراتيجية ترمي إلى إشاعة الفوضى والاضطراب لدى العدو.

ترك الإنجليز الأتراك المنتصرين قرب كوت العمارة يتقدمون في غرب فارس، إلى أن كشف شتاء 1916 / 1917 نقاط ضعفهم في الإمداد والنقل. استخدم البريطانيون في الوقت نفسه الفصل البارد لشن هجوم جديد من الخليج في اتجاه الشمال. عندما هاجم الروس المواقع التركية غرب فارس، بالتوازي مع التقدم البريطاني، أخلى الأتراك يوم 2 آذار حمدان، وتركوا يوم 11 آذار كرمنشاه وفي 31 من الشهر نفسه قصر شيرين، آخر مواقعهم على

الارض الفارسية. غادر المبعوث الألماني ومعاونوه كرمنشاه مع الأتراك، وفي الحادي عشر من آذار احتل البريطانيون بغداد، فكانت الهزيمة المزدوجة ضربة شديدة نزلت بهيبة الأتراك الفتيان العسكرية.

توقف نيدرماير بضعة أسابيع في بغداد، ثم تلقى يوم 9 شباط عام 1917 أمرا بالحضور إلى برلين لتقديم تقرير، فسافر منتصف شباط إلى اسطنبول. لكن الرحلة إلى ألمانيا تعثرت، وفي 27 آذار 1917 أخبر ريتشارد كولمان، السفير الألماني الجديد في تركيا مستشار الرايش بيتمان / هولفيج أن: «المقدم نيدرماير أخبرني شفهيا أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام حول إقامته في أفغانستان. ومع أنني لا أريد بأي حال استباق تقريره الرسمي المفصل، الذي سيقدمه إلى سعادتكم خلال وقت قصير، فإن ثمة واقعة سياسية تستحق الإبراز وتبدو لي على قدر عظيم من القيمة (خاصة وأنها تأتي من رجل يعرف المكان والبلاد على خير وجه)، هي أن سياستنا في أفغانستان وفارس يجب أن تتسم بأقل قدر ممكن من الاستقلالية، وأننا يجب أن نعمل هناك في إطار تفاهم وثيق ويحظى برعاية خاصة مع الأتراك».

لم يكن السفير كولمان جاهلا بصعوبة التعاون مع الأتراك. وقد أبلغ يوم 7 نيسان عام 1917 وهو تحت تأثير موجة من الإحباط عن محادثة أجراها برفقة نيدرماير مع زعيم قبيلة أفغاني طلبا إليه زيارة ألمانيا ليؤثر بعد عودته منها إلى كابول على الأمير بما يتفق وموقفها. غير أن زيارة الأفغاني إلى برلين فشلت بسبب ممانعة أوساط تركية، قال كولمان إنها تريد «احتكار أفغانستان لنفسها».

وكان السفير قد أدرك، إلى ذلك، النتائج التي ستترتب على سلوك القيادة التركية الداخلي المتشدد، وحمّل جمال باشا، الذي أدار من دمشق بقبضة حديدية الأقسام العربية من الامبراطورية العثمانية، بعض المسؤولية عن نجاح الانتفاضة العربية، وأدرك في الوقت نفسه خطورة الدعاية البريطانية

البارعة، فأخبر يوم 27 نيسان عام 1917 مستشار الرايش عن البيان الذي أعلنه القائد البريطاني الأعلى بعد احتلال بغداد، ودعا فيه إلى الانتفاض ضد العثمانيين، وتضمن «نوعا من البرنامج حول سياسة بريطانيا المقبلة تجاه العرب»، يتضمن إقامة نظام دمى عربي في العراق، ويعد فلسطين وربما سوريا بمصير مماثل. لم يؤمن السفير بإمكانية دفع الأتراك إلى مزيد من المرونة، وإقناعهم بحل يعطي العرب الاستقلال الذاتي، واعتقد أن آفاق الهلال الذهبي السياسية تزداد سوادا.

سافر نيدرماير في 10 آب 1917 من اسطنبول إلى ألمانيا. وكان قائد المقر العام الجنرال لودندورف قد طلب حضوره إلى المقر الرئيس الكبير، حيث أمضى أسبوعين وقدم تقريرا إلى القيصر فيلهلم الثاني، الذي منحه وسام آل الهوهنتسولرن. زعم نيدرماير بعد أكثر من خمسة عشر عاما خلال حديث مع أحد البريطانيين أنه حذر القيصر المتفائل من تعليق أية آمال كبار على أفغانستان، وشرح له أن الأفغان لن يسددوا أية ضربة ضد الإنجليز في الهند، ما لم تخرج روسيا من الحرب[30].

ألحق نيدرماير يوم 9 تموز 1917 بمجموعة الجيش ف المشكَّلة حديثا، التي كان اسمها التركي «يلدريم» ومعناه بالألمانية «البرق»، وتكونت من وحدات تركية وتشكيلات ألمانية بقيادة الجنرال إيريش فون فالكنهاين، تمحورت حول نواة هي فرقة آسيوية حديثة الولادة قادها العقيد فون فرانكنبرج. هذه المجموعة، المكونة من 4500 رجل، كانت العمود الفقري لهجوم تقرر شنه خريف 1917 من أجل استعادة بغداد.

وصل نيدرماير في 20 تموز من عام 1917 إلى منطقة مهامه الجديدة. وبقي خلال شهري أيلول / تشرين الأول على الجناح الأيسر لجبهة بغداد، غير بعيد عن حدود فارس الغربية، فقد كان من غير المستبعد القيام بعمليات

30. كريستوفر سايكس: فاسموس، لورانس الألماني. ص 164.

لاحقة في اتجاه أفغانستان. غير انه أنخرط بعد حين في نزاع مع الديبلوماسيين حول سياسة ألمانيا الفارسية. وفي الختام، رد فون فالكنهاين في الثالث من تشرين الثاني عام 1917 على شكوى وصلته من سكرتير الدولة في وزارة الخارجية بالقول: «نأيت بنفسي إلى الآن عن إرسال المقدم نيدرماير، الذي من المقرر أن يكلف بتأمين الجناح الأيسر للجيش السادس، فإذا كان ممكنا لهذه المهمة العسكرية الصرف، التي لا يمكن الاستغناء عنها عند استئناف هجوم الجيش، أن تنفذ في مرحلة لاحقة، أخذت رغبات سعادتكم بعين الاعتبار، وأمرت أن ينأى قائد العملية بنفسه عن أي نشاط سياسي على الأرض الفارسية». ثم تلقت الوزارة في الحادي والثلاثين من تشرين الأول عام 1917 برقية مطمئنة من مجموعة الجيش ف، التي دونت في وثائقها الجملة التالية «التخلي عن تحريض الهند وعن بعثة نيدرماير».

لم يعد أحد يفكر باستعادة بغداد في خريف 1917. بدل القيام بهجوم مضاد ما بين النهرين، كانت قوى المحور ستشعر بالسعادة إن هي نجحت في تثبيت جبهة فلسطين بين غزة وبئر السبع، حيث كان البريطانيون يعدون بطريقة منهجية هجومهم الخريفي الكبير بقيادة آمرهم الأعلى الجديد اللنبي، ويستقدمون قوات جديدة من مصر على طريق الجيش بمحاذاة البحر المتوسط، وأظهرت صور الاستطلاع الجوي، التي التقطتها طائرات الاستطلاع البافاري العاملة في فلسطين، حجم الإمدادات والذخائر الهائل التي نقلوها إلى الجبهة. تولى فالكنهاين شخصيا في الثلاثين من أيلول عام 1917 القيادة العليا على الجبهة الفلسطينية المهددة.

بعد شهر، وبعد ظهر يوم 31 تشرين الأول 1917 شق هجوم فرسان استراليين إلى الشرق من بئر السبع طريق البريطانيين إلى فلسطين. وكان اللنبي قد قاد وحداته وراء جبهته الخاصة بين غزة وبئر السبع في عملية تضليل واسعة الأبعاد، واستخدمها بنجاح ضد جناح العدو الأيسر. حين عجز الأتراك، بعد هذا النجاح، عن الحفاظ على خط الجبهة بين غزة وبئر

السبع، فتقدم البريطانيون والأوستراليون والنيوزيلنديون محققين نجاحا تلو نجاح، ولم يعد سقوط القدس غير مسألة وقت.

كان مقر فالكنهاين في وقفية أوجوستا فيكتوريا خارج مدينة القدس القديمة، فوق مرتفع يطل من الجانب الآخر على جبل قدرون. وقد غادرت أركان حربه يوم 17 تشرين الثاني المكان الرحب، بعد إخراج صورة القيصر فيلهلم الثاني، المعلقة في صالة الطعام الكبيرة، من إطارها ووضعها في مكان آمين. وفي الثامن من كانون الأول أخلت الوحدات التركية بدورها القدس دون مقاومة جدية. بذلك بلغت حقبة نهايتها، زال بزوالها الهلال التركي، وارتفع بدلا منه العلم البريطاني على كنيسة المهد، وكنيسة الصخرة، والمسجد الأقصى.

## آفاق جديدة

ساد البلاد المقدسة ضيق شديد في شتاء عام 1917. كان سكان الهضبة الفلسطينية على حافة المجاعة، وافتقرت مرتفعاتهم الجبلية الجرداء إلى الحطب، بينما قطعت بساتين الزيتون القليلة في الوديان. ولازم البرد الجوع، فكان الشتاء قاسيا بصورة خاصة بالنسبة إلى الجنود الاتراك، الذين لا تستر أجسادهم غالبا غير خرق وأسمال ممزقة ويسيرون حفاة.

لكن الحرب العالمية استمرت، ليس فقط في الشرق وحده. ولم يعرف أحد متى وكيف سينتهي صراع القوى الكبرى. كانت الجيوش المتعادية قد بلغت حد الإنهاك في فرنسا، لكنها كانت لا تزال مستعدة للقتال. صحيح أنه قدمت بعد بداية الحرب وحدات أميركية أولى للقتال، غير أن العصيانات والتمردات كانت قد زعزعت روح الجيش الفرنسي المعنوية، حتى أن قوى المحور نجحت في تحقيق اختراق كبير عبر الجبهة الإيطالية في نهاية تشرين الأول من عام 1917.

أما من وجهة النظر الألمانية، فإن التطور الذي يمكن أن يكون حاسما

بالنسبة إلى نهاية الحرب كان الحدث الذي غطى على الانتكاسات المحلية، فبعد ستة أيام من سقوط القدس في يد قوات الجنرال اللنبي، وقع البلاشفة يوم 15 كانون الأول 1917 في بريست / ليتوفسك اتفاقية الهدنة مع قوى المحور. كان تمرد لينين الناجح في بطرسبرج قد غير مطلع شباط صورة الوضع من أساسها، وأنهى[31] استيلاؤه على السطة حرب ألمانيا الأوروبية على الجبهة الشرقية، وأدخل عنصر قوة جديد في اللعبة الدولية هو الأيديولوجية الثورية.

غادرت برقية ألمانية متفائلة يو 17 نيسان 1917 العاصمة السويدية ستوكهولم يقول نصها: «نجح دخول لينين إلى روسيا، وهو يعمل كما نشتهي، يفسر هذا صراخ إئتلاف ستوكهولم المسعور الذي يسمي نفسه الديموقراطية الاجتماعية». كان لينين قد سافر ورفاقه من سويسرا عبر ألمانيا إلى السويد، وتسلل من هناك إلى روسيا بمساعدة الأركان العامة الألمانية، ليبدأ أخيرا مخطط إشاعة الفوضى والاضطراب في روسيا، الذي وضع في آب من عام 1914، وحقق ألكساندر هيلبهاند ـ بارفوس، المستشار المالي لدى قيادة الأتراك الفتيان، الذي تم تجنيده في اسطنبول، الآمال التي علقت عليه. من أجل كسب الصراع الداخلي، كان لينين، أكثر الثوريين الروس جذرية، مستعدا لعقد السلام مع ألمانيا، وراغبا في منح شعوب الأمبرطورية غير الروسية الاستقلال، وبالفعل، فقد أعلنت جورجيا استقلالها يوم 22 تشرين الأول عام 1917 وإيستونيا يوم 28 من الشهر نفسه بناء على مرسومه «حول حقوق شعوب روسيا». ثم جاء دور فنلندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا وأرمينيا وأذربيجان.

فتح استيلاء البلاشفة على السلطة آفاقا جديدة في الشرق أيضا. بعد

31. هناك صورة عن البرقية في وزارة الخارجية. وفي كتاب «شهادات على العصر»: سياسة ألمانيا الخارجية من 1870 إلى اليوم، برلين 1997، ص 28.

يومين من توقيع اتفاقية الهدنة، أي في 13 تشرين الأول عام 1917، غادر نبأ سري العاصمة السويدية باتجاه كابول، فقد أرسلت اللجنة الثورية الهندية، التي كانت تمولها برلين وتعمل في ستوكهولم، برقية إلى كومار ماهندرا برتاب وبركة الله، الثوريين الهنديين اللذين تركهما نيدرما وفون هانتيج في كابول، ترجوهما بإلحاح إرسال رجال ارتباط يحظون بثقتهما إلى السويد عبر روسيا. وتم إبلاغهما في الوقت نفسه بوصول مواد دعائية إليهما، لتهريبها إلى الهند.

تلقى الهنديان في كابول وعدا من ستوكهولم بفعل كل ما من شأنه كسب دعم الثوريين البلاشفة لتحرير الهند. وطلب إليهما طمأنة الحكومة الأفغانية إلى عدم وجود تهديد روسي لبلادها. وبالفعل، فقد أكدت المادة السابعة من معاهدة السلام، التي عقدت بعد عشرة أسابيع، في 3 آذار 1918، بين ألمانيا والنمسا ـ المجر وتركيا وبلغاريا من جهة وروسيا من الجهة الأخرى على ما يلي: «انطلاقا من حقيقة أن إيران وأفغانستان هما بلدان حران ومستقلان، تلتزم الأطراف المتعاقدة باحترام استقلال هاتين الدولتين السياسي والاقتصادي وسلامتهما الإقليمية». وقد أثار اعتراف الرايش الألماني والبلاشفة باستقلال فارس وأفغانستان تأييدا كبير في العالم الإسلامي وأحزن كثيرا القوى الغربية[32].

لم تقتصر الاتصالات بين برلين وكابول شتاء عام 1917/ 1918 على ستوكهولم وموسكو وحدهما. في الثامن من كانون الثاني عام 1918 ابلغت وزارة الخارجية مندوبها في الموصل توجيها بإقامة علاقة مع كابول عبر كورت فاجنر، الذي كان قد بقي كرجل ارتباط في حيرات بعد افتراقه عن نيدرماير يوم 21 حزيران 1916: «رجاء إبلاغ كومار وبركة الله عبر فاجنر أن

32. رأى البريطانيون والفرنسيون في بريست / ليتوفسك تهديدا لاتفاقية سايكس / بيكو. تابع أوليفر باست: الألمان في فارس أثناء الحرب العالمية الاولى، ص 122.

القوميين الهنود لديهم مكتب في ستوكهولم، زقاق ارتيلري رقم 28 ب، يقوم بدعاية مكثفة للقضية الهندية، وأن عليهما إرسال مبعوثين عبر روسيا إلى ستوكهولم مزودين بأنباء موثوقة عن الهند، وإفهام قادة الحركة الثورية الهندية أن قضيتهم تثير الاهتمام في أوروبا كلها». وأمرت برلين فاجنر بتشجيع الثوريين الهنود والحكومة الأفغانية على تكثيف أنشطتهم: «على القادة الهنود القيام بأعمال ثورية أكثر تأثيرا قبل نهاية الحرب، والإلحاح العلني على مطلب تحرير الهند الكامل. سترسل الكتابات الدعائية من السويد إلى أفغانستان. يقيم هنود ستوكهولم علاقات جيدة مع أنصار المطالب القصوى الروس. بوسعكم طمأنة الأفغان إلى أن خطر روسيا قد زال بصورة نهائية»[33].

عندما تركت هذه البرقية برلين، كان فاجنر قد غادر حيرات وذهب إلى الغرب. لقد ترك المدينة يوم 25 تشرين الأول عام 1917، ووصل يوم 30 كانون الثاني من عام 1918 إلى تركيا، بعد رحلة مليئة بالمغامرة. وكان النظام قد انهار في شمال فارس، منطقة النفوذ الروسي السابقة، فأقام فاجنر صلات في خراسان مع قادة الديموقراطيين الفرس، الذين أعلنوا استعدادهم لتعبئة ما يقارب 12 ألف مسلح. وقد رأى قوات روسية تنهب القوافل الفارسية، وتسرق القرى وتحرقها، بينما نزلت عصابات لصوص أكراد من أوكارها الجبلية لتنقض من جانبها على وسائط النقل الروسية وتستولي على حمولتها وعلى الحيوانات التي تحملها. كان في حمدان وضواحيها من خمسة إلى ستة آلاف روسي فقط، انهار انضباطهم انهيارا تاما، فأمر حاكم المدينة، وهو أحد القادة الديموقراطيين، الشرطة باستخدام القوة لمنعهم من مواصلة أعمال النهب. في الوقت نفسه، تعززت القوى المعادية لإنجلترا، فاضطر قنصلها في كرمنشاه إلى الفرار.

33. يستحق فاجنر، الذي حجبه ظل نيدرماير وهانتيج، أن يحظى بوصف تفصيلي يظهر مختلف مراحل حياته، وخاصة منها دوره خلال العشرينات في أفغانستان.

1. البافاري المتأنِّق: أوسكار نيدرماير، حوالي عام 1910.

2. تاجر فارسي في مشهد، عام 1913.

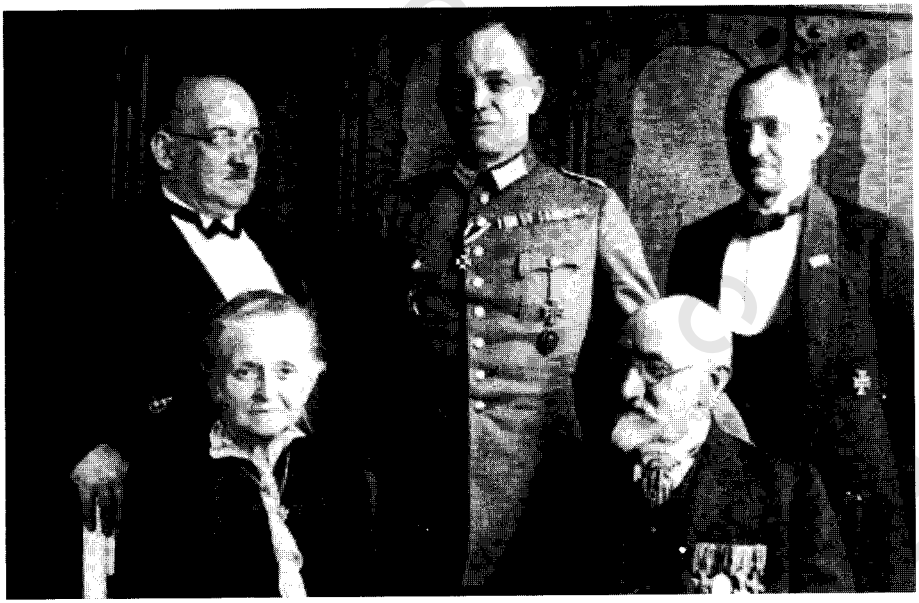

3. المستشار السري فريدريك نيدرماير إلى جانب زوجته وأبنائه الدكتور الطبيب فريتز نيدرماير ودكتور الفلسفة أوسكار ريتر فون نيدرماير والدكتور المهندس ريشار نيدرماير (من اليسار إلى اليمين).

4. في منطقة المصالح الروسية: أوسكار نيدرماير وإرنست ديتز في شمال فارس. كانون الثاني 1913.

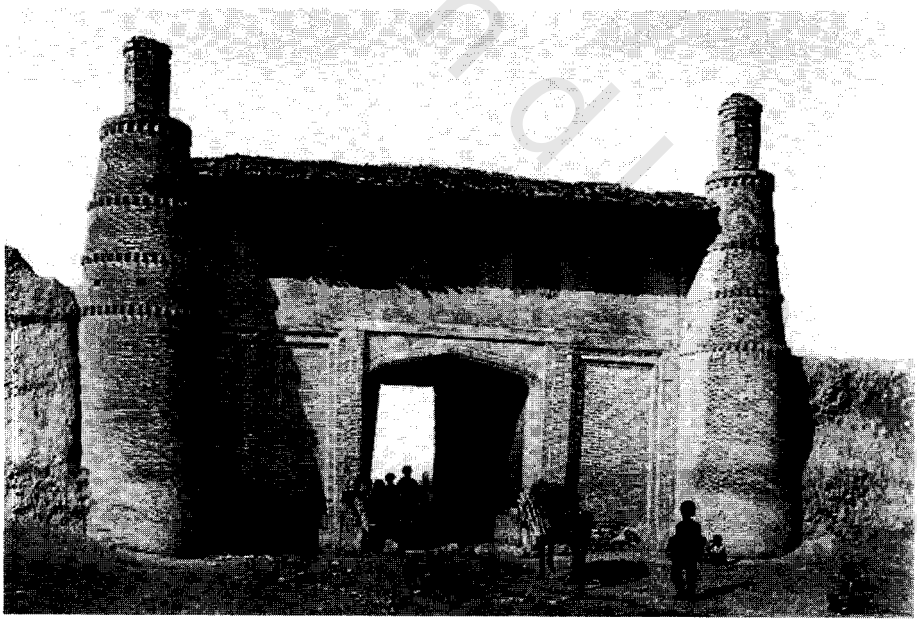

5. باب عشتار آباد الكبير. شباط 1913.

6. عبر سهوب خوزستان نحو الحدود الأفغانية، آذار 1913.

7. بيرسيبوليس، كانون الأول 1913.

8. بغداد في شباط 1914. القاطرات البخارية في بغداد، لكن الخطوط الحديدية لا تصلها بعد مع برلين.

9. قوى الإصلاح: الحاكم الفارسي وأتباعه.

أمضى أوسكار نيدرماير الأيام الأولى من عام 1918 في الناصرة، حيث أقامت الأركان الألمانية مقرها بعد إخلاء القدس. لم يكن الوضع على الجبهة الفلسطينية، التي كانت تمر قرب نابلس إلى الجنوب من الناصرة، يستأثر وحده باهتمامه، بعد أن وصلته في منعطف العام 1917/ 18 معلومات عن تأثير الثورة الروسية على وضع فارس وأفغانستان الداخلي. كانت الوحدات الألمانية والتركية تخوض في فلسطين حرب مواقع يستحيل كسبها ضد عدو متفوق، بينما لاحت فرص مغرية في فارس والقوقاز وآسيا الوسطى وأفغانستان. فهل كانت برلين ترى هذا؟.

بعث نيدرماير في 4 كانون الثاني رسالة من الناصرة إلى فون كولمان، سكرتير الدولة في وزارة الخارجية، الذي كان قد تعرف عليه عام 1917 في اسطنبول. لقد أراد استخدام هذه المعرفة الآن للفت انتباه القيادة الألمانية إلى الإمكانات السياسية والاستراتيجية الجديدة في آسيا الوسطى، فكتب بخطه الواضح والمقروء: «تعرفون سعادتكم رغبة أفغانستان الرئيسة، بعد أن حصلت على الاعتراف باستقلالها، ونالت الدعم الألماني وظهرت مصالح روسيا فيها. لكنني أسمح لنفسي أن ألفت نظر سعادتكم مرة أخرى في هذه اللحظة إلى عدم جواز الاستهانة بأهمية قيام صلة عاجلة مع أفغانستان. وربما كان لا يبدو أمرا خياليا إذا كنت أنا بالذات من يشير إلى احتمال نجاح عمل عسكري ألماني هناك، مهما كانت وسائله قليلة في البداية، لان هذا يمكن أن يحدث في ظروف معينة تأثيرا كبيرا على سلوك إنجلترا»[34]. لم يكن ممكنا بالطبع الحكم في كانون الثاني عام 1918 على تفاصيل عمل ألماني محتمل: «إلى أي حد يمكن لهذا العمل أن يتوطد؟. يتعلق هذا بأمد الحرب وبظروف لا أستطيع تقويمها بصورة كافية من هنا». لكنه يوجد في المنطقة نقاط انطلاق لسياسة ألمانية نشطة: «أما أننا لا نزال نتمتع اليوم أيضا بالثقة

34. رسالة نيدرماير من الناصرة: وزارة الخارجية، وثيقة رقم 21059.

في أفغانستان وفارس، فهذا ما تؤكده لي معلومات كثيرة».

برزت في رسالة نيدرماير من الناصرة لأول مرة فكرة تعاون واسع النطاق بين الرايش الألماني وروسيا البلشفية. أما الفكرة الموجهة، التي ستحكم من الآن فصاعدا جميع أفكاره الجيواستراتيجية، فهي أن: «تعاوننا المشترك مع روسيا على الحدود الهندية سيؤذي بالتأكيد أعداءنا أكثر مما تضر بهم عملياتنا العسكرية القليلة الحظ في فلسطين وبلاد الرافدين».

كتب سكرتير الدولة فون كولمان على رسالة نيدرماير بخط يده: «لا أعد نفسي بالكثير من هذا، بسبب ظروف روسيا». ثم أخبر الموظف المختص في الوزارة بها، الذي لم يكن أحدا آخر غير رودولف نادولني، خصم نيدرماير قبل عام في كرمنشاه، الذي اعاده يوم 15 كانون الثاني عام 1917 إلى ألمانيا، وكان يرى ان على نيدرماير «الخروج بادئ ذي بدء من أفغانستان»، فما باله يظهر من جديد!. وضعت رسالة نيدرماير في التاسع العشرين من كانون الثاني في الملفات، ودفنت في أرشيف وزارة الخارجية. إن لفت انتباه الساسة والديبلوماسيون الألمان إلى الاحتمالات الاستراتيجية في الشرق، كان بحاجة إلى ما هو أكثر من مبادرة المقدم البافاري الكتابية.

## الطفيلة

تزايدت باضطراد مصاعب الأتراك وحلفائهم الألمان في شرقي الأردن منذ منتصف كانون الثاني عام 1918، فبعد أن احتل العرب بقيادة مستشارهم ومحرضهم لورانس العقبة بمساندة بريطانية، لم يعد هناك عقبة يمكن ان تحول بين البريطانيين وبين جلب السلاح والأعتدة الحربية عبر البحر الأحمر إلى المرفأ الصغير، وإمداد قبائل الحجاز وشرقي الأردن بالسلاح والذخيرة والمال. انتشرت حركة المقاومة انتشارا متزايدا على الدوام نحو الشمال واقتربت منتصف كانون الثاني عام 1918 من قاعدة عمليات الجيش الرابع التركي قرب عمان.

احتلت وحدات عربية ثائرة يصحبها لورانس موقع الطفيلة الصغير في 16 كانون الثاني، وهو يقع جنوب شرق البحر الاحمر، في منتصف المسافة بين عمان والعقبة. لكن لورانس، الذي كان يعتبر الموقع مكانا قليل الأهمية على طريقه، بوغت بهجوم غير متوقع شنته عليه وحدات تركية صبيحة يوم 24 كانون الثاني كان قد تم تشكيلها على عجل في عمان، وأُلقي بها نحو الجنوب، تضم ثلاثة أفواج ضعيفة مع مائة فارس ومدفعين جبليين و27 مدفعا رشاشا ويقودها حميد فخري باشا، قائد الفرقة الثامنة والأربعين. بعد يوم من مغادرتها الكرك، وليلة من السير المتواصل، هاجمت الوحدة صباح اليوم التالي طلائع القوات العربية في وادي الحسا، الانهدام الذي يفصل مؤآب عن آدوم، ويشكل مدخلا إلى الطفيلة، ويبدو احتلاله ضربا من الاستحالة. أجبر الهجوم التركي الطليعة العربية على التراجع، قبل أن يتم إمدادها بالتعزيزات، غير أن مبادرة لورانس الشخصية حالت دون فرار العرب، ومكنتهم من المناورة على الأتراك وردهم على أعقابهم في منطقة لم يحسنوا التحرك فيها، لأنهم كانوا لا يعرفونها.

خسر الأتراك قتلى وأسرى كثيرين، وانتهت عمليتهم الواعدة بهزيمة قاسية[35]. كتب الرائد فرانز فون بابن، ضابط الأركان لدى الجيش التركي الرابع، إلى الأمير بيرنشتورف في اسطنبول يقول: «انطلقت قبل حين

35. تستحق العمليات التركية / الألمانية في فلسطين وشرقي الأردن دراسة خاصة لا بد أن يقوم بها العسكريون. تشير الندوة التركية / الإسرائيلية، التي عقدت بين 3 إلى 12 نيسان من عام 2000 في تل أبيب واسطنبول حول الحرب العالمية الأولى في الشرقين الأدنى والأوسط إلى ما يحظى به هذا الموضوع من اهتمام في إسرائيل وتركيا والعالم الأنجلوساكسوني. أشكر الدكتور أوفه بفولمان، أحد أفضل العارفين الألمان بهذا الموضوع للإشارات المهمة التي زودني بها حول الوضع السياسي والعسكري في فلسطين والأردن خلال الحرب العالمية الأولى. راجع أيضا كتابه: ابن سعود، برلين 1999، ص 173. وكذلك: الوضع الحربي في الشرقين الادني والاوسط عامي 1916 / 1918 من وجهة نظر ألمانية، مخطوط غير منشور. وكذلك: كونراد مورسي: لورانس والثورة العربية 1916/ 1918. اوسنابروك 1967.

الوحدات التركية المرابطة في الكرك (وهو مكان يقع بين سكة حديد الحجاز وطرف البحر الميت الجنوبي)، التي تسمي نفسها «فرقة» مع أن عدد بنادقها لا يزيد بأي حال عن ألف، نحو الجنوب، لتشن هجوما ضد طلائع بدو ثائرين... وقد مني الأتراك بهزيمة نكراء خلال القتال وأجبروا على التقهقر بسرعة إلى الكرك».

كان نيدرماير اللاعب المقابل للورانس خلال أشهر عام 1918 الثلاثة الأولى. في «الصورة عن حياته»، التي كتبها عام 1935 لشرح مواقفه وتبريرها، وأرسلها كارل هاوسهوفر إلى رودولف هيس، يعرج نيدرماير بايجاز على هذا المقطع ويقول: «أرسلت عام 1917 كضابط أركان عامة إلى جبهة فلسطين، حيث كان علي قيادة مجموعة تركية/ المانية كبيرة نسبيا، نجحت خلال معارك ضارية وبعد خسائر جسيمة في دحر العرب، الذين كان يقودهم البريطاني لورانس، وردهم إلى منطقة البحر الميت أو الصحراء»[36].

عندما اتهم عام 1944 «بتقويض القدرة الدفاعية»، زعم نيدرماير أنه أنزل بلورانس «أفدح هزيمة» تعرض لها[37]. ووصف نفسه في موجز العمليات الحربية «كرئيس أركان عامة للمجموعة القتالية قرب الطفيلة»[38]. كيف حدث أن نيدرماير أشار باعتزاز إلى قتاله ضد القبائل العربية الثائرة، مع أن معركة الطفيلة انتهت يوم 24 كانون الثاني بفشل كانت خسائره فادحة، وصفه لورانس في مذكراته الحربية الموسومة «أعمدة الحكمة السبعة»، بإسهاب مؤثر بالنسبة إلى الرأي العام.

من الصعب استعادة العمليات العسكرية المختلفة في بلاد شرقي

36. انظر الوثيقة الخامسة في نهاية هذا الكتاب.

37. هذا ما قاله نيدرماير يوم 28 آب عام 1944 خلال استجوابه من قبل قاضي مجموعة الجيش فيست. محضر موجود في تركة الأستاذ الدكتور ارتور كوهن، وضعه مشكورا تحت تصرفي السيد يورجن كوهن، بون.

38. الوثيقة الثالثة في آخر هذا الكتاب.

الأردن، التي لم تخلو من نجاحات متفرقة حققها الأتراك وحلفاؤهم، رغم رد هجومهم الأول قرب الطفيلة. وقد أوردت الصحف الألمانية في 11 آذار 1918 أخبارا مفرحة من مسرح العمليات البعيد: «احتلت قواتنا الطفيلة في الحجاز وشتّت المتمردين». وهناك عملية تركية ثانية ضد الموقع الصغير في الهضبة الممزقة حققت نجاحا أكبر من النجاح الذي ترتب هجوم كانون الثاني، نسبت نتيجتها إلى نشاط نيدرماير الذي لا يعرف الكلل: «ثم كان رئيس أركان مجموعة الجيش التركية / الألمانية قرب خط حديد الحجاز، الذي استولى في الفترة بين كانون الثاني وآذار لإبان عملية صحراوية على قاعدته الرئيسة في الطفيلة ودمرها إلى درجة حالت دون استخدامها من جديد قبل انهيار الجبهة التركية الرئيسة». تثمن مذكرات فرانز فون بابن بعد عقود إسهام نيدرماير في هذا النجاح، وإن كانت تقويمات مراقبين شاركوا مباشرة في القتال ترى أن الهجوم الثاني، الذي وقع في آذار من عام 1918، لم يكن ناجحا كل النجاح، فقد فشل الأتراك في منع المتمردين العرب من الانسحاب والخروج من القتال، بسبب طبيعة الأرض غير السالكة. يقول مراقب ألماني: «أصيب الملازم الأول جروبا في درعا، وكان قد عاد لتوه من حملة الطفيلة، التي قادها الرائد نيدرماير، وأخبرنا أن استثمار النجاح الذي تحقق هناك محال، لأن الافتقار إلى خرائط حول منطقة جنوب شرق الكرك جعلنا نجهل أنه كان باستطاعتنا بسهولة قطع طريق انسحاب العدو الوحيد»[39].

رغم هذا، تلقى نيدرماير، الرائد التركي والمقدم البافاري، الذي ارتدى بذة الأركان العامة وكان ضابط الأركان الألماني الوحيد الذي قاتل في الحجاز، مديح رؤسائه الذين قوموا في آذار عام 1918 نشاطه هناك وفي

39. تقرير حول الرحلة العلمية التي قام بها نحو سوريا وفلسطين الرائد تراوس والأستاذ بيرجشتريسر بين 24 شباط و19 أيار عام 1918.

شرقي الأردن وقالوا: «إن النجاحات التي تم إحرازها هناك بصورة خاصة ترجع إلى نشاطه الدائم والذكي ضد المتمردين العرب خلال حملة الطفيلة، الذي حظي بشكر رؤسائه الأتراك المطلق». لا ينصب التقويم الإيجابي على عمل نيدرماير شرق نهر الأردن فقط: «إنه أحد أفضل وأوضح من يقومون ويعرفون لدينا الظروف التركية والفارسية، لذلك تخلو أحكامه من أية حماسة للشرق، وهو يرى الأمور بإحساس ألماني سوي ويعرف كيف يتعامل بطريقة ممتازة مع الشرقيين».

أقنعت العمليات الأخيرة الفاشلة ضد رجال العصابات في شرق الأردن نيدرماير مرة أخرى بصحة تقويمه للوضع في 4 كانون الثاني عام 1918، حين حذر سكرتير الدولة في وزارة الخارجية السيد كولمان من «العائد القليل جدا للعمليات العسكرية في فلسطين»، ونصح بدلا من ذلك بنقل مركز الثقل الاستراتيجي لإدارة الحرب الألمانية، وقال: لم يكن ممكنا مطلع عام 1918 الاحتفاظ سياسيا وعسكريا بالمناطق التي يسكنها العرب في الامبراطورية العثمانية وفلسطين وبلاد الرافدين. بالمقابل، انفتحت آفاق جديدة في القوقاز وآسيا الوسطى بعد انهيار إمبراطورية القيصر. فهل ستدرك قيادة الرايش السياسية والعسكرية هذا أخيرا؟.

## فرصة جديدة

نقلت الصحف الألمانية في 28 آذار 1918 نبأ سارا من عاصمة الرايش إلى قرائها الذين أتعبتهم الحرب، هو أن رجلا غريبا جاء إلى برلين قادما من كابول هو «الملاّك الهندي الكبير كومار ماهندرا برتاب، الذي كان الإنجليز قد استولوا على ممتلكات جده قبل مائة عام وطردوه من موقعه كأمير حاكم»[40]. وعاد الثوريون الهنود في كابول، الذين يتلقون تعليماتهم من

40. هانس أولريش سايدت: من فلسطين إلى القوقاز ـ أوسكار نيدماير واستراتيجية ألمانيا في الشرق الأدنى في: مجال الدراسات الألمانية، الجزء 24، العدد 1، شباط 2001، ص 1 ـ 18.

ستوكهولم وبرلين، إلى عاصمة الرايش عبر آسيا الوسطى وروسيا، بعد أن قابلوا ترتسكي وغيره من قادة البلاشفة في موسكو، وعلم الرأي العام الألماني الآن بوصولهم السعيد كاحد نجاحات بريست ليتوفسك: «ما أن صار الطريق عبر روسيا حرا، حتى عاد كومار إلى ألمانيا ليجد ترحيبا حارا به». وألمحت التقارير الإخبارية المراقبة، القادمة من عاصمة الرايش، إلى أن وصول ماهندرا يمكن أن يؤدي إلى تطورات أكثر أهمية في المستقبل: «أما خبر وصوله سالما إلى برلين، فإنه سيكون محل ترحيب أنصاره وأصدقائه الكثيرين».

كان عدد أتباع ماهندرا في تلك الأيام أقل بكثير على الأغلب مما بدا لخيال القارئ الألماني. مهما يكن من أمر، فقد اقترح الامير الشرقي على سامعيه الألمان جريمة قتل، وقال بضرورة أن تثير برلين شقاقا بين الأمير وشقيقه نصر الله في كابول. ألم تنشر «الجريدة الفوسيه» شبه الرسمية مقالة عن رحلة برتاب الأفغانية الناجحة، وتلمح إلى وجود تفاهم ألماني/ أفغاني سري، سترد بريطانيا عليه بضغط شديد على الأمير نتيجته نشوب توترات سياسية داخلية قوية في كابول ستنتهي بإطاحة الأمير على يد أتباع نصر الله؟. باغت الاقتراح الديبلوماسيين الألمان، فكان رد فعلهم متحفظا وانتظاريا. بدوره، رفض ماهندرا اعتراضهم الذي ذكر باحتمال أن يحتل الإنجليز كابول في أي وقت، إذا نجح المخطط، وقال إن الأفغان أقوياء إلى درجة تمكنهم من صد أي هجوم بريطاني دون طلب عون خارجي، وإن مسلمي الهند سيسارعون إلى مساعدة أخوتهم في الإيمان، وسيثورون ضد الإنجليز.

اصطدمت الألاعيب الفكرية، التي قدمها الهندي العائد من كابول، بتشاؤم برلين، التي رغبت في حسم النقاش وطلبت إلى المشاركين الرئيسيين في حملة أفغانسان تقديم تقويمهم للأمور، فحذر فون هانتيج يوم 7 نيسان 1918 من خطوات متسرعة، يمكن أن تلحق الضرر باستراتيجية ألمانية بعيدة

المدى ضد البريطانيين، وقال: «لن تجلب التعقيدات على الحدود الأفغانية غير الضرر بالنسبة إلى المسألة الهندية في طورها الراهن، لأنها ستجعل الإنجليز يعززون موقعهم ويمارسون سياسة نشطة على الحدود الشمالية الغربية وفي أفغانستان. وللعلم، فإن وضعهم يتيح لهم الاستيلاء بسهولة على كابول».

تلقى الجنرال أوتو فون لوسوف، مفوض الرايش العسكري في اسطنبول، يوم 19 نيسان 198 أمرا سريا من قيادة الجيش العليا يطلب إليه سؤال نيدرماير عن رأيه في تقديم طلب جديد إلى أمير أفغانستان بالهجوم على الهند. عندما تلقى فون لوسوف البرقية، كان نيدرماير قد وصل اسطنبول عبر دمشق، بناء على أمر برقي بالعودة إلى البوسفور، كان قد أصدره إليه مطلع عام 1918 الجنرال الألماني فون سيكت، الذي قاد أركان الجيش العثماني العامة.

لم تترك اسطنبول في عام الحرب الرابع الانطباع لدى العائد إليها من جبهة فلسطين بأنها مدينة في حالة حرب. كانت وسائط النقل تتزاحم في شارع بيرا الواسع، ولولا الجنود الألمان الكثيرون ببذاتهم الميدانية لخلا الجو الشرقي من بصمة عسكرية. لكن نيدرماير لم يكن لديه وقت للقيام بنزهات سياحية، بل استغل استفسار قيادة الجيش العليا لعرض أفكاره حول استراتيجية ألمانية واسعة المدى في آسيا.

كانت قيادة الجيش تعتقد بضرورة حث الأمير حبيب الله على القيام بعمل ضد الهند، لأن تهديد روسيا لبلاده قد اختفى في المدى المنظور. والحال، إن البرقية طالبت نيدرماير بعرض موقفه، كانت تضع حدودا واضحة للمساندة التي يمكن لألمانيا تزويد أفغانستان بها: «ليس واردا بطبيعة الحال إرسال وحدات ألمانية مقاتلة». في ظل هذه المعطيات والاشتراطات، اعتقد نيدرماير أن أية استراتيجية ألمانية حيال آسيا ستكون محكومة بالفشل،

وإن كان الاستفسار يعطيه أخيرا الفرصة كي يعرض على مركز السلطة الفعلي في الرايش الألماني الأفكار التي كان قد صاغها دون جدوى في الناصرة يوم 4 كانون الثاني من عام 1918، خاصة وأن رأيه لن يذهب الآن إلى سكرتير دولة حذر في وزارة الخارجية، بل إلى قيادة الجيش العليا، التي كان رئيس مقر هدندنبورج الجنرال إيريش لودندورف يتمتع فيها بصلاحيات دكتاتورية.

ترك رد نيدرماير اسطنبول في 23 نيسان 1918: «يعتقد المقدم نيدرماير بعدم جدوى محاولة إدخال أفغانستان إلى الحرب ضد إنجلترا عبر التأثير الديبلوماسي وحده». لن تقوم كابول بتسديد ضربة ضد الهند، إذا لم تدرك أنها قوية عسكريا. وسيكون الدعم الألماني مطلوبا، على أن يتضمن تزويدها بمائة ألف بندقية مع ذخيرتها على الأقل، وبعدد ملائم من الرشاشات والمدافع الجبلية والطائرات والهواتف الميدانية وسواها من التجهيزات التقنية. ومن الضروري كذلك إرسال كادر ألماني يتولى تدريب الأفغان واستخدام العتاد، ولأن طريق ألمانيا إلى أفغانستان أخذ يمر بعد بريست ليتوفسك ببحري قزوين والأسود، وبسكك حديد القوقاز وتركستان، فإن من الضروري تأمين مجانب الألمان في شمال فارس. وفي الختام، تقدم البرقية الملخص التالي: «إذا توفرت هذه الشروط الضرورية جميعها، صار المشروع في رأي نيدرماير ممكن النجاح».

استند رأي المقدم على مسودة تقع في خمس صفحات أنجزها قبل إرسال البرقية يوم 19 نيسان 1918، دعت إلى استراتيجية عامة ألمانية تركية ترتكز على عمل ألماني تركي مشترك في القوقاز وآسيا الوسطى، حيث كان الأتراك يبدون استعدادهم لملء الفراغ الذي نشأ عن انهيار رايش القياصرة. بل ان أنور باشا، الذي كانت تحركه صور رغبية حول الوحدة الطورانية، كان يريد الذهاب إلى الشرق على مسؤوليته الخاصة. من أجل توجيه نوايا تركية الوجهة السليمة ضد السيطرة البريطانية في الهند، اقترحت خطة نيدرماير العملياتية يوم 19 نيسان 1918 الخطوات التالية: «سيكون القوقاز

وشمال فارس هدفنا التالي الأكثر أهمية. عندما سنقيم هناك قاعدة عمليات تحميها قواتنا، سنرسل عملاءنا ورجال استخباراتنا إلى آسيا الوسطى وجنوب فارس وتركستان وأفغانستان. متى تم إعداد الأرض بهذه الطريقة، ستفاجئنا ضآلة المصاعب السياسية والعسكرية، التي ستواجهنا في بقية البلدان».

تلقى نيدرماير أمرا بالقدوم إلى المقر الرئيس. والتقى خلال الرحلة إلى شبا في نهاية نيسان من عام 1918 بشقيقه فريتز، الذي حررته اتفاقية بريست / ليتوفسك من الأسر الروسي، وعمل الآن طبيبا مساعدا في عيادة مدينة فراكفورت على الماين الجراحية. لاحظ الطبيب، الذي رأى شقيقه المقدم لفترة قصيرة في اسطنبول، تغيرات مثيرة للقلق في شخصيته، كما قال في شباط عام 1945 وهو يحاول إنقاذه من حكم إعدام قد تصدره ضده محكمة الشعب النازية برئاسة القاضي رولاند فرازلر.

## قرار في شبا

عندما وصل نيدرماير مطلع أيار من عام 1918 إلى منتجع شبا البلجيكي الصغير، كان الشرق يقدم صورة مزدوجة عن أوضاعه، فالأحوال حرجة على جبهة فلسطين، حيث شن الإنجليز منتصف آذار هجوما عبر الأردن في منطقة تقع شمال البحر الميت، محاولين تطويق ميسرة مجموعة الجيش التركي وإزاحتها عن خط السكة الحديدية الذاهبة إلى دمشق. وقد أمكن صد الهجوم البريطاني الأول على الضفة الغربية للأردن، وكذلك الهجوم الثاني، الذي وقع في نيسان. بيد ان هجوما جديدا بقوى أكبر كان مرتقبا. خاضت الوحدات التركية في بلاد ما بين النهرين معركة دفاعية أيضا، دفعتها القوات البريطانية خلالها إلى الخلف ببطء وتصميم في اتجاه الموصل. في الوقت نفسه، رسخ البريطانيون أقدامهم بقوة في شمال فارس، بعد تفكك الوحدات الروسية الكامل.

كان الوضع يبدو أحسن من ذلك في القوقاز، المنطقة التي انصبت

عليها تأملات نيدرماير الاستراتيجية. بدأ الأتراك تقدمهم نهاية شباط من عام 1918 في أرمينيا، واستعادوا من جديد وخلال شهر واحد المنطقة التي احتلتها روسيا خلال الحرب، وراقبوا فضلا عن ذلك منطقة قارص وباطوم، التي منحتها لهم في السلام اتفاقية بريست / ليتوفسك، وتطلعوا إلى تجاوزها، مثلما أشار نيدرماير في 19 نيسان 1918، لذلك نشروا دعاية قوية بين شعب أذربيجان المسلم، بينما كان نوري باشا، شقيق أنور باشا يشكل وحدات عسكرية جديدة في الإقليم.

استعادت قيادة الرايش اهتمامها من جديد بأفغانستان، وفي السادس من أيار 1918 استقبل القيصر فيلهيلم الثاني كومار ماهندرا برتاب، الذي سلمه رسالة من الأمير ونسخة من كتابه «نظرات ماهندرا برتاب»، وفيه يقدم إلى القيصر خطة خيالية حول تحرير الهند بمعونة «جيش اشتراكي» يضم ألمانا وأتراكا ونمساويين وبلغارا وروسا. وضع نيدرماير في المقر العام الكبير في شبا مذكرتين على خلفية التطور الميداني الغامض والأفكار المضطربة ذات الانتشار الجامح.

ترجع المذكرة الاولى إلى 10 أيار 1918، وفيها يحلل نيدرماير أهداف البريطانيين السياسية في فارس. وتتضمن الثانية، غير المؤرخة ولكن المكتوبة في الفترة نفسها، تقويمه للوضع في آسيا الوسطى ومقترحات حول العمل الألماني اللاحق. إذا كان نيدرماير قد ناقش عندما كان في القسطنطينية يوم التاسع من نيسان عام 1918 آفاق فارس وأفغانستان الإقليمية، فإنه دخل الآن في شبا ميدان السياسة الدولية: «إذا كنا نريد أن نكون قوة عالمية، فإن هذا هو وقت تقديم تقويم صاح للمشكلات العالمية كمشكلة آسيا الوسطى على غرار ما تفعله إنجلترا»، وليكن معلوما أن التقويم الصحيح لسلوك بريطانيا، «عدونا الرئيس» السياسي والعسكري، هو شرط نجاحنا.

كان نيدرماير يتحرك في فنادق المنتجع البلجيكي الفخمة، بمنأى كبير

عن الواقع، فكان بوسعه أخيرا وضع الصورة الجيوسياسية الكبرى لأوراسيا. وبالمناسبة، لم يكن التقدم البريطاني السريع مطلع عام 1918 إلى شمال فارس مفاجئا بالنسبة له، فقد شعر البريطانيون بفراغ السلطة هناك بعد انهيار الوحدات الروسية، وكانت استراتيجيتهم بعيدة المدة تنصب على ضم فارس ومناطق آسيا الوسطى المجاورة إلى منطقة نفوذهم.

لفت نيدرماير نظر قيادة الجيش العليا إلى نقطة مهمة، هي أن الرايش الألماني قدم خدمة كبيرة للبريطانيين، حين أشاع الاضطراب في روسيا وثوّرها، لأن الضغط الشديد، الذي مارسته قيصريتها من الشمال نحو الهند، طيلة فترة تربو على قرن، اختفى، بينما صار احتلالها في شمال فارس، الذي أوقف التقدم الإنجليزي نحو آسيا الوسطى، جزءا من الماضي، بالإضافة إلى أن الخليج، الغني بالنفط، الذي أراد نائب ملك الهند اللورد كورزون تحويله قبل الحرب العالمية إلى منطقة نفوذ بريطاني، كان الآن، بعد احتلال بغداد والبصرة، في يد الانجلوساكسون عمليا، بينما تابع تلميذ كورزون، القنصل البريطاني السابق في مشهد ومضيف نيدرماير بيرسي كوكس، بنشاط سياسة أستاذه في جنوب فارس.

لفت نيدرماير في أيار 1918 نظر القيادة الألمانية إلى القوقاز الشرقي، وشمال فارس، وتركمانستان وأفغانستان، ودعا إلى مساندة الأتراك في سياستهم تجاه أذربيجان وما وراءها، على أن لا يعتمد الرايش الألماني على الأتراك وحدهم في القوقاز، بل يتكل على جورجيا أيضا، التي غدت مستقلة وترتبط قدرتها على الحياة بسيطرتها على مرفأ باطوم البحري، الذي يجب أن يكون، لهذا السبب، تحت إشراف ألماني. لم يحدد نيدرماير مطلع أيار من عام 1918 أية مبادرات حيال هذا التدبير، لكنه ألمح، كما في رسالته من الناصرة، إلى منظور إضافي يمكن أن يفتح طريق ألمانيا في المستقبل إلى القوقاز: «ربما يتغير هذا عندما ننجح فيما بعد في إقامة حلف قوي مع دولة روسية ملائمة». أما نصيحة نيدرماير إلى قيادة الجيش العليا، فقالت بالنص:

«يجب أن يتحول القوقاز في أقرب وقت ممكن إلى قاعدة رئيس لمشاريعنا السياسية والعسكرية في فارس وتركستان وأفغانستان. كما يجب دعم إجراءات الأتراك في أذربيجان».

تابع لودندورف أفكار نيدرماير. وأرسل برقية في اليوم ذاته إلى مستشار الرايش هيرتلنج، تتبنى أفكار المقدم وتأخذ جملا كاملة من نصه. أيد لودندورف دعم السياسة التركية على حساب السياسة الفارسية، وكتب يقول: «إذا ما أعطينا ولاية تاليش إلى فارس، فهذا يعني أننا نسمح لإنجلترا بالوصول إلى كورا ومنحهم أفضليات في التصرف تجاه جمهورية عبر القوقاز. إلى هذا، من غير الجائز أن نفلت أية فرصة من أيدينا لتعويض تركيا في مكان آخر عن الخسائر الأرضية الكبيرة، التي تعرضت لها خلال هذه الحرب ولا نستطيع إعادتها إليها. إننا بحاجة إلى تركيا قادرة على العيش، إذا كنا نطلب أن نكون قوة عالمية. لكننا يجب أن نكون مصممين في الحرب الراهنة على الإفادة من عون تركيا لإقامة قاعدة للعمل المشترك مع أفغانستان على بحر قزوين، لاعتراض إنجلترا عسكريا في فارس والهند. وإنني لعازم منذ الآن على إقامة اتصال كهذا تحسبا لجميع الأحوال».

في اليوم التالي، 11 أيار 1918 اصطدمت في شبا مواقف القيادة السياسية والعسكرية المتباينة، فقد اعتقد سكرتير الدولة في وزارة الخارجية فون كولمان، الذي كان قد أخفى رسالة نيدرماير من يوم 4 كانون الثاني 1918 في الأرشيف، أن تحذير القنصل الألماني في تفليس، الجراف فيرنر فون شولنبورج، كافيا. بينما حذر مستشار الرايش جراف هيرتلنج بإلحاح من إطالة الحرب. اعترض لودندورف على رأيه قائلا: إذا كانت بعثة في القوقاز ستتحول إلى حملة في فارس، فإن هذا سيحدث من أجل قهر إنجلترا. ونصح المستشار بالاستماع إلى رأي مواطنه البافاري نيدرماير حول الوضع في فارس.

كان عدد قليل من الخبراء يعلم ما يمكن أن يسببه قرار لودندورف بتدخل ألماني في القوقاز. وقد تذكر اللواء البافاري فريدريش فرايهر كريس فون كريسنشتاين، الذي كان عام 1917 رئيس أركان جبهة فلسطين ورئيس الوفد القيصري الألماني في القوقاز عام 1918، أن نيدرماير هو الذي لفت نظر لودندورف إلى القوقاز وعملية لاحقة ضد الهند. وانتقد فون سيكت، الرئيس الألماني للأركان العامة العثمانية، في رسالة بعث بها في أيار 1918 إلى الملك فرديناند البلغاري «صنع سياسة آسيوية بمائة مقاتل قديم، ولا يجوز التدخل بعد الحادية عشرة مساء في مصائر جزء من العالم بناء على محاضرة يلقيها مقدم شاب أمام طاولة لودندورف».

يؤكد نقد سيكت اللاحق لقرار لودندوف خلافه الشخصي مع رجل الرايش الألماني الأكثر قوة آنذاك، ومرارته لانه لم تكن له هو نفسه عام 1918 سلطات رئيس المقر العام. لكنه في ربيع عام 1918، عندما كانت المنطقة بين فنلندا والبحر الأسود تحت سيطرة قوى المحور الظافرة، وكان القتال دائرا على الجبهة الغربية من أجل حسم مصير الحرب، اتفقت تصورات سيكت مع رؤية المقدم البافاري الاستراتيجية، واقترح في آذار من عام 1918 استدعاء نيدرماير إلى المقر الرئيس الكبير من أجل تقديم تقرير، ورجا في نيسان من العام ذاته إرسال نيدرماير إلى اسطنبول بعد انتهاء إقامته في الغرب، ليتولى معالجة الشؤون الفارسية / الأفغانية. كانت تهيؤات سيكت تذهب مطلع عام 1918 في الاتجاه ذاته الذي اختطه نيدرماير، وفي الثاني من أيار عام 1918، وبينما كان نيدرماير في الطريق إلى شبا، أفصح سيكت كتابيا عن رغباته السرية إلى الشريك الذي كان يراسله منذ سنوات طويلة فينترفيلدت ـ منكين: «عندما وقفت على خطوط سكة الحديد التي تمر بباكو وتفليس، أرادت أفكاري تخطي بحر قزوين واختراق حقول قطن تركستان والوصول إلى الجبال الأولمبية، وإذا ما استمرت الحرب ـ كما آمل ـ فإنه لن يكون هناك بديل عن طرق أبواب الهند».

تجاهل نقد سيكت اللاحق للودندورف أن مشروع القوقاز الألماني انصب عام 1918 على ما هو أكثر من استخدام «مائة مقاتل قديم». في السادس من حزيران عام 1918 حملت السفن 1080 ضابطا وجنديا بافاريا من فوج القناصة الاحتياطي الأول، و 488 من مقاتلي فوج الاقتحام البروسي العاشر إلى بوتي، لحماية خط حديد بوتي/ تفليس / الكسندر وبول، وشد أزر حكومة جورجيا سياسيا وعسكريا. وفي 20 آب بلغ عدد قوات القوقاز الألمانية 214 ضابطا و5050 جنديا، وفي منتصف أيلول كان عددها قد بلغ قرابة تسعة عشر ألف رجل.

كان الكادر المسؤول عن العمل الاستخباري والدعائي مكونا من أعضاء خبيرين في بعثة فارس وأفغانستان. وكان رئيسهم الأستاذ تسوجماير، عالم الحيوان من ميونيخ، الذي زار بلوشستان بين عامي 1912 و 1914، واعتبره مراقبون فرنسيون فيما بعد «رئيس الاستخبارات الألمانية في تفليس»، يعاونه كورت فاجنر، ضابط ارتباط نيدرماير السابق في حيرات، الذي كان مسؤولا كنقيب احتياط عن الشؤون البحرية والنقل البحري، والدكتور فريتز نيدرماير، الذي ترك عمله الطبي في فرانكفورت على نهر الماين وذهب كطبيب عسكري إلى جورجيا.

كتب الطبيب يوميات حول عمله في القوقاز وجدتها ابنته في تركته. لكن مدوناته ذات الخط الباهت، المكتوبة بلغة جابلزبيرج الاختزالية، صعبة القراءة. كما أنه لم يحكي إلا القليل عن مشاهداته، خلال اللقاءات المسائية الكثيرة، التي دعا في فترة تالية إليها كرئيس مشفى في باساو. بيد أنه كان هناك على كل حال استثناء هو قصته حول لقائه مع والدة ستالين، التي كانت تسكن غير بعيد عن بيته في تفليس. عرفت السيدة المسنة أن فريتز طبيب، وطرقت ذات يوم بابه طالبة علاجا طبيا، فشخّص خلال الكشف الطبي وجود قصور قلبي لديها وأعطاها أدوية. وبعد أيام قليلة، كانت انتفاخات الساقين قد تراجعت، ومتاعب القلب أقل. تلقت والدة ستالين بعض علب

الأدوية مع تعليمات مناسبة لاستخدامها، قبل أن يغادر الطبيب الألماني تفليس مع مجموعته. لم يكن أحد يعرف عام 1918 الأهمية التي سيبلغها ستالين، فهل كان بوسع أوسكار نيدرماير الإفادة من هذه الصلة خلال إقامته اللاحقة في موسكو كممثل سري لجيش الرايش؟.

تتضمن تركة فريز نيدرماير مجموعات صور تظهر فتنة عالم جورجيا والقوقاز المنصرم الغريبة. وتعليمات صحية باللغة الألمانية لصالح الحكومة الجورجية يحتمل أن يكون هو كاتبها، وفيها كذلك يافطة عيادته المكتوبة باللغتين الألمانية والروسية، وعلم جورجيا المستقلة، الذي حمل بين عامي 1918 و 1921 ألوان الرايش الألماني: الأسود والأبيض والأحمر على خلفية حمراء ترمز إلى الثورة. وقد عادت جورجيا إلى هذا العلم بعد استقلالها عام 1991.

لم تكن تفليس في النهاية غير مرحلة وحسب من العملية الألمانية، التي حدد نيدرماير هدفها الأصلي بوضوح في أيار وكان حتى نهاية عام 1918 باكو وحقول نفطها. وعلى كل حال، تعاملت القيادة السياسية في برلين بحرص أول الأمر مع البلاشفة، وعندما عقدت في 27 آب 1918 الاتفاقية التكميلية لمعاهدة سلام بريست/ ليتوفسك، تقرر كذلك فصل وتحديد مناطق النفوذ، وقالت المادة 13 من الاتفاقية حرفيا: «تعلن روسيا موافقتها على اعتراف ألمانيا بجورجيا كدولة مستقلة». بالمقابل، تعلن برلين في المادة 14 ما نصه: «لن تساند ألمانيا أية قوة ثالثة عند نشوب عمليات عسكرية محتملة في القوقاز خارج جورجيا والمناطق المذكورة في المادة الرابعة / الفقرة الثالثة من معاهدة السلام». بينما وافق البلاشفة بالمقابل هو زيادة استخراج وانتاج النفط قدر الإمكان في باكو، وإعطاء ربع الكميات المستخرجة لألمانيا. انتقد لودندورف هذه المراعاة السياسية، واعتقد بضرورة احتلال باكو بواسطة عملية سريعة وقوية، ولم ير ما يدعو إلى عقد تسويات توافقية مع البلاشفة.

احتل البريطانيون مطلع آب من عام 1918 باكو انطلاقا من مرفأ أنزلي الفارسي، وكانت خاضعة حتى الآن لرقابة المفوضين البلاشفة. لئن كان قد حال دون تقدم الألمان والأتراك إلى المدينة رغبتهما في تحاشي مواجهة مع البلاشفة، فإن الإجراء البريطاني أزال هذا العائق السياسي. تلقى كريس فون كريسنشتاين، القائد الألماني الأعلى في القوقاز يوم 31 آب 1918 برقية من وزارة الخارجية تعلمه عن استعداد الحكومة السوفياتية إطلاق يد ألمانيا في باكو، شريطة أن لا تتم العملية بواسطة الأتراك. وكان لودندورف قد أقر يوم احتلال باكو في 27 آب إنشاء جهاز استخبارات ألماني شرقي بحر قزوين، يحرض عملاؤه التركمان ويدمرون مواصلات البريطانيين وسككهم الحديدية. وفي 11 أيلول عام 1918 أبلغت قيادة الجيش العليا فون كيرسنشتاين موافقة البلاشفة الصريحة على هجوم ألماني ضد البريطانيين في باكو.

لم يكن الألمان هم الذين احتلوا باكو، فقد بدأت وحدات تركية يقودها أنور باشا اقتحام المدينة قبل ساعات قليلة من شروق شمس 14 أيلول، وبعد انسحاب البريطانيين عبر البحر، احتل الأتراك المدينة يوم 15 أيلول 1918. وصل نبأ استيلاء الوحدات التركية على باكو بعد يوم إلى برلين، وفيه أن منشآت استخراج النفط لم تصب بأي أذى تقريبا، ولم يدمر سوى أربعة من خزاناتها الألف.

أرسل فون كيرسنشتاين فوجا ألمانيا لوقف القتل والنهب، بعد المجازر التي تعرض لها سكان باكو المدنيين. وصف الكاتب والصحفي اليهودي ليو نوسيمباوم، الذي أصدر تقريرا عام 1930 في برلين عنوانه «نفط ودم في الشرق» تحت اسم محمد أسعد بك، الوضع الفوضوي بالكلمات التالية: «بعد ثلاثة أيام من القتل، كان من الصعب عودة الناس إلى رشدهم، لذلك دخل الألمان المدينة يصحبهم الأتراك، ونصبوا المشانق على زوايا الشوارع جميعها»، وأعلنوا عن تدابير مؤثرة: «سيشنق دون إبطاء بعد سماع صوت قذيفة مدفع كل من يقبض عليه وهو ينتهك النظام، أو ينهب، أو يقتل أو

يسرق». اختفى المجرمون بعد أيام قليلة، بما أنه كان من الضروري إعدام أبرياء أو فك المشانق، لجأ الألمان إلى تدبير غريب، فقد جمعوا جثث الناس، الذين كانوا قد ماتوا في مشافي الحكومة أو في أماكن أخرى، وعلقوها ليلا على المشانق».

عين الألمان والأتراك يوم 23 أيلول 1918 الحدود بين مصالحهم، بعد احتلال باكو بثمانية أيام، واتفقوا على الاستغلال المشترك لثروات القوقاز الأرضية، على أن توضع صناعة النفط وسكة حديد باكو ـ تفليس ـ باكو وخط أنبوب نفط باكو نحو باطوم تحت إدارة ألمانية طيلة فترة الحرب. وفي 15 تشرين الأول 1918، أبلغت تفليس برلين برقيا أن النقيب فاجنر عاد من باكو بنبأ يؤكد إمكانية تجميع غواصة كبيرة من حمولة ألف طن في ترسانتها البحرية، تستطيع حماية مواصلات الألمان البحرية في بحر قزوين. عندما وصلت البرقية إلى عاصمة الرايش، كان قد صدر الأمر بانسحاب الوحدات الألمانية من القوقاز.

حين بلغت القوات الألمانية والتركية باكو خلال الأيام الأخيرة من حرب القوقاز، كان نيدرماير يشهد هزيمة الألمان في الغرب: ميدان الحرب الرئيس. انتقلت قوات فرنسية وبريطانية وأميركية متفوقة إلى الهجوم المضاد يوم 18 تموز 1918، بعد فشل هجوم مطلع العام الألماني. وفي 8 آب، يوم الجيش الألماني الأسود، استخدم سلاح الدبابات المعادي لأول مرة قرب أميان، فلم يمكن منع الاختراق الواسع إلا باستخدام آخر قوى احتياطية. كانت قوى المحور قد استهلكت قدراتها العسكرية، فأعلنت قيادة الجيش العليا في 14 أيلول 1918، بعد يوم من احتلال باكو، عدم جدوي مواصلة الحرب، وانهارت جبهة البلغار البلقانية في مقدونيا، واخترق هجوم بريطاني بدأ يوم 18 أيلول 1918 الجبهة التركية في فلسطين وسوريا، فطلب لودندورف في نهاية أيلول مسارعة حكومة الرايش إلى عقد اتفاقية هدنة على أساس نقاط ويلسون الأربع عشرة.

## حساب مبدئي

انطلقت مطلع تشرين الثاني من عام 1918 سفن نقل من اسطنبول نحو الشمال الغربي حاملة بقايا وحدات آسيا الألمانية، التي قاتلت طيلة سنوات أربع إلى جانب الأتراك، واتجهت عبر البحر الاسود إلى موانئ سواحله الروسية، بعد أن منيت ألمانيا بفشل سياسي وعسكري ذريع في الشرق. كان بين الضباط الذين غادروا الهلال الذهبي هانس فون سيكت، آخر رئيس أركان للجيش التركي.

أجرى سيكت كشف حساب خلال الرحلة الغامضة[41]. وقد أوردت مذكرته حول «أسباب انهيار تركيا في خريف عام 1918» مكان وتاريخ كتابتها (كتبت هذه المذكرة في البحر الأسود بتاريخ 4 تشرين الثاني 1918). وكان سيكت قد أمعن التفكير مرة أخرى في أحداث سنوات الحرب الأخيرة، فجاء تحليله واقعيا ومفعما إلى حد ما بالمرارة. في نظرة إلى الوراء، وجد سيكت أن القيادة التركية قبلت «دون اعتراف أو إعلان» ضياع المناطق المأهولة بالعرب من أمبراطوريتها مطلع عام 1918، عندما جعل سلام بريست / ليتوفسك الرايش العثماني منتصرا مرة أخرى على روسيا. إن انهيار رايش القيصر الروسي أعطى اسطنبول الأمل في تعويض مناطقها العربية، وسوغ انتقال مركز ثقل الحرب الاستراتيجي: بدل الدفاع عن مواقع ساقطة في فلسطين، انتقل أنور باشا والجيش التركي إلى الهجوم في القوقاز. من هنا، كان هناك أفكار جيوسياسية بعيدة المدى وراء العمليات الهجومية خلال أشهر الحرب الأخيرة، «التي كانت الإشارة الأخيرة إلى نشاط تركيا الحربي». وكان بوسع الأتراك مرة أخرى متابعة أهداف قومية والتعلل بوهم مد سيطرتهم على أقسام واسعة من القوقاز وآسيا الوسطى.

41. توجد مذكرة سيكت، المكتوبة بتاريخ 4 تشرين الثاني 1918، حول «أسباب انهيار تركيا في خريف 1918» في تركته.

دعم سيكت الخطط الطموحة لحلفائه الأتراك وحاول إدراجها ضمن تصور عام مضاد لبريطانيا يضمن مصالح الرايش الألماني بعيدة المدى. وكان يعتقد في تشرين الثاني عام 1918 أن على الرايش مساندة خطط أنور باشا ورفاقه عقيدة الأتراك الفتيان: «كانت إدارة الحرب الكبرى تتطلب أن يقدم الجانب الألماني دعما أكيدا لهذه المخططات الخيالية، طالما كان ممكنا استخدامها لمصلحتهما المشتركة ضد نقاط ضعف إنجلترا في فارس».

يتذكر سيكت بالعرفان أنور باشا، الثوري التركي الفتي صديق ألمانيا الذي يتقن لغتها وبقي شريكا متفهما للألمان في الطور النهائي من الحرب أيضا: «كان فهم أنور باشا الواضح لمسائل الحرب الكبرى منفتحا كل الانفتاح على السياق الفكري المطروح»، وهو أنه يمكن تهديد المواقع البريطانية المفتاحية في الهند انطلاقا من أذربيجان والقوقاز الجنوبي: «فإذا ما أدركت ألمانيا في الوقت المناسب الفرصة المتاحة، وكانت في وضع تقدر معه أن تستعمل قوى مساندة كافية متعددة الأنواع، فإنه سيتكون عندئذ ميدان حرب جديد في ظروف ملائمة».

لكن التاريخ تجاوز هذه الخطط الجيوسياسية الخيالية. هذا ما أكده سيكت في 4 تشرين الثاني وهو يكتب: «دمر التحول الذي عرفته الحرب العالمية هذه الخطط والفرص جميعها ولم يبق منها شيئا»، بيد أنه واصل بعد أشهر قليلة في برلين اللعبة الكبرى حول مستقبل آسيا والعالم، لأن 1918 لم يكن غير جولة أولى خاسرة.

بقي نيدرماير، بعد استشارات شبا المهمة، في الجبهة الغربية، حيث كان مقدرا لهجوم مطلع العام أن يحسم الحرب. لقد كان يحلم بالتقدم الألماني عبر القوقاز إلى آسيا الوسطى وأفغانستان والهند، فإذا بالسقوط القاسي هو الذي يحدث. راقب نيدرماير خلال أيام الحرب الأخيرة المعارك العنيفة حول المواقع المرتفعة إلى الغرب من شاتو بورسيان، التي صمدت

الخطوط الألمانية فيها حتى مطلع تشرين الثاني 1918. وتلقى في ريمونيه، قرب مدينة شارلفيل الإقليمية الفرنسية، أمرا بالاشتراك مع ضباط آخرين في مناقشة سرية أبلغوا خلالها باحتمال انفجار اضطرابات سياسية في ألمانيا. وبينما كان الاجتماع دائرا ورد خبر مفاجئ يقول إن الجنود الألمان والسكان المحليين ينهبون قطارا يحمل موادا غذائية. «لقد فاجأنا هذا وأحبطنا تماما ـ أعترف أنني فوجئت وشعرت بالإحباط ـ». فيما بعد، بدأ الأستاذ الدكتور أوسكار ريتر فون نيدرماير، مدير معهد السياسة العسكرية في جامعة برلين محاضراته في ثلاثينات القرن الماضي حول «السياسة العسكرية» انطلاقا من هذه الذكرى.

openkandl.com